

العربية في ظل العولمة

أ.د عبد الجليل مرتاض
(ج / تلمسان)

العولمة الخلفية للغة العربية:

حين قيّض الله لي أن أسهم، بما يسرّ الله لي أن أسهم به، في العدد الخاص المتميز الموسوم "العربية: الراهن والمأمول" الصادر عن المجلس الأعلى للغة العربية سنة تسع وألفين، بمقالة كان موضوعها "العربية ورهانها العولمي لسانياً"، وذلك بمناسبة مرور العشرية الأولى على ترسيم المجلس الأعلى للغة العربية، ظهر لي حينها أن مقالتي تلك، وعلى الرغم مما أخذت مني من جهد جهيد، ووقت طويل، ومن استثمار لمعارفي الخلفية والآنية، بقيت إشكالياتها وطروحاتها تحتاج إلى توضيح أعمق، وتقريب أكثر، وتوظيف أدوات أخرى خارج المعارف اللسانية، وبعبارة أخرى قد تكون أزيد دقة ونصوعاً أن ذلك المبحث الطويل كان موضوعه وقفاً على الإرهاصات والإحالات اللسانية التي لا تدع أدنى مجال للشك لدى كل مرتاب بقدرة اللغة العربية على الحياة ومقارعة أية لغة عالمية لما انمازت به من إرث حضاري، ولما أسهمت به من تواصل ثقافي إنساني بين الشرق والغرب.

ولا تُعدّ الإشارة المُلمَحُ إليها أعلاه أن هذه السطور سوف تستكمل المبحث المطبوع استكمالاً شافياً، بل كل ما في الأمر أننا سنحاول هنا إثارة ما كان بوجدنا لو أُثير سابقاً، ولاسيما ما يتعلق بتعميق مفاهيم العولمة بعامة، والعولمة اللغوية بخاصة، وما يتصل بالآفاق الاستشرافية للغة العربية وما ينتظرها من منافسة قوية وحتى مناهضة شرسة من لغات حديثة فرضت نفسها منذ أكثر من قرنين في مختلف الممارسات التواصلية والتربوية والعلمية، وها هي ذي شراستها تستفحل استفحالاً شراً لدواعي علمية وتكنولوجية مقابل انكماش لغات إنسانية أخرى وتعرّضها للضعف والهجر ووضعها على محك الزوال.

ولما كان البحث الحديث يقتضي من صاحبه أن يحدّد الموضوع المراد علاجه حتى لا يدع كثيراً مما قد يكتفه من ضبابية محتملة، فإننا نرتئي هنا أن نوضّح للمتلقي ما يختلف في عموديته بين مجتمع ومجتمع، أو بين ثقافة وثقافة، أو حتى بين هيمنة وهيمنة، حتى كأنما القوم أضحوا يتفقون فيما يختلفون اتفاقاً أكثر فيما هم فيه مختلفون، أو حتى كأنما الاتفاق أصبح بين القوة المهيمنة مصدر إزعاج وقلق لهم أزيد مما أمسى لهم مآل أريحية وارتياح، أو قل كلما سبق قوم قوماً آخرين في علومهم وصناعاتهم وتقدمهم إلا وصحبهم فراغ في الفضيلة والأخلاق.

واني هنا لا أخدع القارئ لأزعم له أنني أعرفّ العولمة تعريف منظر، بل سأحاول مناوشة هذا المصطلح "المعسول المسموم" تعريف متلقّ ومحلّ، وإلا زادت الهوة، وأقلت تحديد الموضوع منا، وبعبارة أقلّ خداعاً، فإننا نجتزئ هنا بتحديد هذا المفهوم الغدار الفصاف تحديد مستهلك نابش لا تحديد مُنتج، لأن إدراكي لهذا المفهوم الشائك لم يأت بعدُ على مُنتجِه أي لم يحن الوقت الذي يمكنه من أن يُنتج فيه.

العولمة؟

وأعتقد أن مفهوم العولمة، مع ما يحمله من تضمينات بمصطلح اللسانيين المحدثين، سيبقى مفهوماً غير جامع، إذا كان لا يتجاوز دلالاته الذاتية الرتيبة، وسيكون أصدق في شموليته الكونية حين يتحرّر من قيود مادة إعلامية برّاقة لا تنعكس إيجابياً ورفاهية وحرية وسلاماً إلا على الأقوياء، على حساب فئات إنسانية أخرى شبه مشلولة هنا وهناك من كوننا.

وتفيد بعض المراجع أن أول من تبنّى فكرة مفهوم العولمة بعد عالم السوسيولوجيا الكندي مارشال ماك من جامعة تورنتو "زيغنيو بريجينسكي" أحد مستشاري كارتر، الذي صرّح في نهاية السبعينيات من القرن الماضي أن أمريكا وحدها تمتلك خمساً وستين في المائة من المادة الإعلامية الكونية، ومن ثم فهي جديرة بأن تتخذ مثلاً عولمياً للحادثة الأمريكية "المتميّزة" بالحرية وحقوق الإنسان⁽¹⁾.

إن هذا الخطاب الأمريكي المتعالي زاده تعالياً ومكنة كونه صادف فتور القوة الشرقية ثم انهيارها بعد حين، ومنها أقول شمس الاتحاد السوفياتي وسقوط جدار برلين، مما جعل الحرب الباردة تتحصر في قوة عظمى واحدة تنصدها أمريكا، وهو ما يتعارض مع فكرة أو آمال العولمة "الحقيقية" نفسها، ولا أدلّ على ذلك من أن هذا المصطلح القديم الجديد أصبح الساسة والخبراء والإعلاميون يكتفون من تردادته منذ العقد الأخير من القرن الماضي، وهي الفترة التي صادفت انفكاك المعسكر الشرقي وتحولته إلى دويلات مستقلة، وهو أمر جيّد إذا كانت العولمة في أحد أبرز مفاهيمها تعني التنازل عن اللامركزية، واحترام الأغلبية للأقلية، والتخلي عن التسلط والهيمنة.

وما من شك في أن مفهوم العولمة أو الكونية أضحى لا يزيد إلا تبايناً كلما تقادم العهد عليها، وستظل كذلك ما دامت لا تعبأ بالدرجة الأولى، إلا بالجوانب الاقتصادية والسياسية والأحلاف العسكرية دونما التفات كبير إلى جوانب أخرى للشعوب المستضعفة والمتخلفة ثقافياً واجتماعياً وعلمياً، وما دامت الفضاءات للدول الصناعة الكبرى موصدة أمام المدد البشري الزاحف من دول الجنوب، وما دامت هذه الدول أضحت لا تشكّل يوماً بعد يوم إلا اتحاداً في تعيين نوعية المواطن بيولوجياً وجغرافياً مقابل تشديد الخناق على أي غريب لا يتناسب عرقياً مع هذه التكتلات الجديدة.

ما الجديد فيما يسمّى "العولمة"؟

وهل العولمة هي المساواة الكوكبية في ثقافتنا وتجارنتنا وتقدمنا التكنولوجي والمعلوماتي وإتاحة الفرص للتعليم والشغل والعلاج... أم هي الاستمرار في أن يزيد القوي قوة، والضعيف ضعفاً، والعالم علماء، والجاهل جهلاً...؟ وإذاً، ما الجديد فيما يسمى بـ"العولمة"؟.

"حتى منتصف القرن (الماضي) ، ظلت عالمية نمط الإنتاج الرأسمالي مقتصرة في الغالب على دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والاستيراد والتصدير، مع بقاء دائرة الإنتاج الرأسمالية ودورها في دول المركز الأصلي وحدها. العولمة وفقاً لهذا التحليل، هي إذن، وصول نمط الإنتاج الرأسمالي.. إلى نقطة الانتقال من عالمية دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والتداول إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج ذاتها.. العولمة بهذا المعنى هي رَسْمَةٌ العالم على مستوى العمق بعد أن كانت رَسْمَلُتْهُ على مستوى سطح النمط قد تَمَّتْ" (2).

ولو كانت العولمة ديناً يُؤْمَن به لَمَا آمَن به غير الأقوياء، لأن الأديان السماوية تدعو دوماً إلى المساواة، وأُخذ حقّ الفقير من الغنيّ، وإنصاف الضعيف من القوي، بيد أن العولمة لا تزيد الغنيّ إلا غِنًى والفقير إلا فقراً، ولن تقرب الضعيف من القويّ، بل تعمل على توسيع الهوة بين الطرفين، "بأي معنى تعدّ العولمة مرحلة جديدة وعهداً جديداً؟ ألم تنشأ الرأسمالية مُعَوْلَمة؟ ما الجديد في عولمة الخمس الأخير من القرن العشرين؟ أليست المؤسسات التي تحمل راية العولمة وتعزّزها، مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي واللغات والمنظمات التابعة لهيئة الأمم، وليدة حقبة الحرب الباردة، وليدة اتفاقيات بريتون وودزو الهيمنة الأمريكية على الاقتصاد العالمي؟... أين الجديد إذاً في العولمة؟" (3).

رؤية المناهضين للعولمة:

ومن ثمّ، فإن غير واحد من الدارسين المناهضين للعولمة، لا يرى في العولمة إلا مجموعة مترامنة من الظواهر العالمية الجديدة الناتجة عن جملة من التراكمات القديمة" (4) للأسباب الآتية (5):

1) عملت ثورة الاتصالات والمعلومات على تذليل السبل الأكثر حظوظاً أمام المدّ الرأسمالي النقدي وتداوله عالمياً بتحديدته في سِكَكِ دون سِكَكِ شعوب أخرى لدواعي غريبة عن العقول السليمة، كما أمكن هذا العامل من عولمة الإنتاج ورسمَلته مضافاً إلى الرأسمال النقدي والرأسمال التجاري واحتكار رؤوس الأموال والتحكم في سيولتها وصيرورتها دون أن تفكر (العولمة) في عواقبها السلبية على الفقراء والضعفاء والطبقات الكادحة، ولكن ها هم أولاء منظرّوها والراضعون من ألبانها جعلوا يدفعون هنا وهناك جزءاً غير يسير من جشعهم

وتسلّطهم الذي تجاوز البطون والبنوك والاحتكار التجاري لينتقل إلى تدخلات سافرة وغير أخلاقية في شؤون كل دولة لا تنبطح أمامها تحت أسماء برّاقة زائفة، تارة باسم الديمقراطية، ومرة باسم حقوق الإنسان، وطوراً بدافع حماية الأقليّات، وسواها من مصطلحات تُخلّق اختلاقاً كذرائع عدوانية لإرْكَاع الشعوب الأبيّة إلى أحادية أمبريالية في ثوب قديم جديد.

(2) أدّت العولمة إلى اختلال عالمي نتيجة لتفكيك نظم الإنتاج، الأمر الذي آل إلي المزيد من بروز شبح البطالة، وشخّ سوق العمل، وبوار الإنتاج المحلي لتواضع جودته.

(3) قبل نهاية القرن الماضي ظهر ما أصبح يعرف بالشركات المتعددة الجنسيات ظهوراً صارخاً، وها هي الآن تتحكم في رقاب ثلاثة أرباع الأنشطة الاقتصادية عالمياً، إلى درجة أن الإحصاءات تبين أم مردود أو دخل خمسين من هذه الشركات العملاقة يفوق دخل ثلثي أقطار العالم !.

(4) تنهض قوة العولمة على أسس طائفية وضيقة وبعث النعرات الجهوية على حساب الوحدة الوطنية للشعوب وتنميتها وتعايشها السلمي.

ونظراً للظواهر السلبية التي لا تُعدّ ولا تُحصى لما يسمى بالعولمة، فإن المناهضين لها بمفهومها الأحادي التسلّكي تشاءموا منها، وعَدّوا لا يرون فيها إلا فخاً أو شركاً يُنصّب للإيقاع بالمغفلين أو الأنظمة المستسلمة التي ترى في انبطاحها لها حماية لسلطانها على حساب عزّتها وكرامة شعوبها.

العولمة موجة لا مفرّ منها

ومع ذلك، فإن ما سبق أن أشرنا إليه ليس مبرّراً للاطمئنان من النجاة من مخالب هذا الوباء الذي لا مردّ له بعلاجه بما ينسجم معه دون الانصهار في

بوتقة انصهار مادة خامية حتى لا يُصنَع بنا ما يُشاء لنا، ونصير معرّة أمام الشعوب القوية أو من ماضي التاريخ.

إن مصطلح "العولمة" غدا من أكثر "الكلمات تداولاً في عالمنا المعاصر... لكن الفلسفة تعلّمنا بحكم تجربتنا أن الشيء بقدر ما يكثر استعماله يكثر إهماله،... وليس المقصود بالإهمال هنا التقليل من أهمية هذه المقاربات"⁽⁶⁾، بل أصبح هذا المفهوم الذي لا يخلو من ضبابية لدى الضعفاء ووضوح عند الأقوياء، سمة من سمات عصرنا، ويُعنى به عموماً التطبيع العالمي للكون حباً أو كرها بكل إشكالاته ومكوناته وحركاته وصولاً إلى كلية قطبية في العيش والتفكير والتدوير للهويات (وخاصة اللغات).

وفعلاً، فإن موجة العولمة شملت البر والبحر من كرتنا الأرضية، وتغلّغت وسط أحيائنا وقرانا، وبين المقبلين عليها والمدبرين عنها، بل أصبحت كأنه أمر مفروغ منه، ولربما أصبح القرار الحاسم لا يُختم ختامه في هذا البلد أو ذاك إلا بعد مشورة صانعي ومروجي هذه العولمة، بمعنى أن هذه الأخيرة لا يوجد في قاموسها الأمر الناهي عولمة فرعية أو حيادية، مما جعل الدول المتخلفة تقنياً ومعلوماً تتوجس خيفة من أربابها الذين صاروا يتخذونها ورقة ضغط كلما تعارض نمو اقتصادي، وتنور علمي وثقافي، وتحرّر سياسي هنا أو هناك مع مصالح أربابها الشرهة التي لا تقنع ولا تشبع.

العولمة حق أم باطل؟

ومع ذلك يرى بعض المتفائلين أن فرص العولمة "كثيرة ومتنوعة، وبالإمكان استغلالها لتحقيق أهداف محلية ووطنية وغايات إنسانية وعالمية، فالعولمة تحمل معها فرصاً معرفية هائلة مصاحبة للثورة العلمية والتكنولوجية،

والتطورات في مسائل الاتصالات، وتقنيات المعلومات،... والعولمة تتضمن على ما يبدو فرصاً استثمارية ضخمة وواضحة ومرتبطة أساساً بالتطورات المتسارعة في بنية الاقتصاد العالمي، واتجاهاته الجديدة نحو فتح الأسواق المالية والتجارية، وتقليل القيود على حركة المال والسلع والخدمات والمعلومات⁽⁷⁾.

بمعنى أن العولمة حتى لا تبقى "عَوْرَة" -بإعجام الغين- كما أطلق عليها هذا المصطلح عبد الملك مرتاض⁽⁸⁾، يتطلّع الضعفاء في الـ"عورية" و"الأفرقة" و"الأسينة" و"الأمركة" الجنوبية إلى أن تتطلق (العولمة) من نقاط كونية مختلفة، ومن إرادة وثام وتعايش متبادلين، ومن توزيع الثروة بالحق والعدل، وتعميم التعليم، والسماح للتكنولوجيا الحديثة أن تعمّ البلدان المتخلفة بأكثر من قرن أو أكثر عن مروجي عولمتهم، وينبغي على الدول "المتقدمة" أن تكبح جماح هيمنتها على المواد الأولية التي تزخر به الدول المهمشة، وأن تتساوى الشعوب في الحقوق والواجبات، بل لعلّ أكبر عائق من عوائق العولمة المزعومة أن مروجيها ليسوا مستعدين لتغيير ما بأنفسهم من تعالٍ غير إنساني ولا أخلاقي، وإلا فكيف تكون العولمة عولمة، وأنت تُفهر، وتراقب، وتؤمر، وتنتهى، وتهدد بتعلّات جوفاء في عقر فراشك،... وهو يبتكر، ويصنع، ويتطور، ويوعدك برؤوس نووية وصواريخ عابرة للقارات، ويكتنز في خزائنه ثروتك لتغدو يوماً بعد يوم جزءاً من مدّخراته؟ كيف تكون العولمة، عولمة وصوتٌ بلد واحد يقهر أصوات الكوكب الأرضي كله؟ كيف تكون العولمة عولمة ويطون تشكو الثَّخَمَة وأخرى تتلوى طوى؟

وها هو ذا غير واحد من مشخّصي هذا الشبح المسمّى "عولمة" يبرز أنها "لا تُعدُّ بمعالم أكثر أماناً واستقراراً وعدالة وديمقراطية"⁽⁹⁾ مشيراً إلى أن العولمة "لا تسعى بالضرورة إلى خلق عالم أكثر إنصافاً للمجتمعات التي لا تشعر حالياً بالإنصاف. إن تحقيق الأمن والاستقرار العالمي والعدالة بين الدول والديمقراطية لشعوب ليس من اختصاص العولمة، كما أنها لا ينبغي التصور أو التعامل مع العولمة كالمنقذ القادم لإنهاء فقر الفقراء، وإخراج الشعوب الفقيرة من فقرها، أو تخليص المجتمعات البائسة من بؤسها، أو مساعدة الدول المتخلفة لإنهاء تخلفها العلمي"⁽¹⁰⁾.

وبما أن حديثنا ههنا لا يخص مفهوم العولمة الذي ظهر في قاموس أكسفورد أول مرة من عام واحد وتسعين وتسعمائة وألف، إلا توطئة للحديث عن مستقبل اللغة العربية في ظلّها، فإنها لا يجوز لنا هنا أن نجعل موضوعنا الأساس يتيه فيها تيهاناً ينأى عن مغزاه الجوهري، وكل ما كان بودّنا الإشارة إليه أن العولمة تخدم القوي والغني والمتقدم أكثر مما تسعف الضعيف والبائس والمتخلف، فضلاً عمّا يشوبها من تراكمات فكرية، وتصورات آنية ومستقبلية متضاربة حتى وإن كان المبشّرون بها يدّعون للمغفلين أنهم سوف يقلّصون الكوكب كله إلى فضاء قروي صغير يسع الإنسانية كلها جمعاء، مع أنها ليست أكثر من نظام جديد "دُبّر ليلاً" لدعم الأقوياء، وطحن الضعفاء وإبكائهم، وتمكين صنّاع قرارها من التحكّم والهيمنة حتى فيما يأكلون ويشربون ويلبسون.

وحتى لو قُدِّر لهذه العولمة أن تغدو يوماً رسالة أرضية شمولية، فإنها ستظل صيحة خرساء، وظاهرة عرجاء، ما لم تتمتع بقيم خارقة، وما لم تستمدّ قيمها من الشريعة الربّانية التي سبق للرسائل السماوية السمحة أن نادت بها،

وآخرها الإسلام الذي رسم معالم واضحة للتعايش الإنساني الشمولي قبل اكتشاف نصف هذه العولمة بمئات السنين، أقول هذا ليس بدافع ديني ولا غريزي، ولكن من باب أن الإنسان خارج الدين السماوي الصحيح يكون تفكيره معقلاً دوماً بالجانب العاطفي والعرقى والوجداني والجهوي والإقليمي... في حين أن الإسلام ينبذ هذه العوامل مرسخاً بدلها الإخاء، والمساواة، والتراحم، والتعايش، والتعارف... بصرف النظر عن الأعراف، والألوان، والثقافات، وحتى الأديان ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (11)، والمفسرون يعرفون دوافع وأسرار الاستعمالات اللفظية القرآنية بين "الناس" و"المسلم"، و"المؤمن". حتى وإن كان لفظ "المؤمن" أعلى درجة، وأنه لفظ دلالي قطعي شامل، ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (12) مباشرة بعد الآية السابقة.

العولمة الخلفية للغة العربية:

هل يسمح لنا هذا العرض لإعطاء بركانٍ عن حال اللغة العربية خلفياً دون أن نقع في شرك العوامل والتضاربات التاريخية؟ أعتقد أن الخلاص الأكثر ملاءمة لإجمال هذه الخلفية أن نتقاضي، بكل حيطة ممكنة، الاستغراق والاستطراد في تعميق هذه الإشكالية التي لا تخفى قليلاً ولا كثيراً على العالمين بها وبخباياها.

ولذا، فإن الهدف من بضع هذا الجزء من موضوعنا أن نبرز جوانب مشرقة من المعالم العولمية الخلفية للغة العربية، وليس الحديث عن تاريخية اللغة العربية، وهو موضوع آخر.

ومما سبق لي أن دوّنته في بحث آخر، وأنا أتحدث عن عراقية اللغة العربية ومغامراتها العالمية، جاء: "ينبغي ألا يأخذ أحداً مأثراً ذهول بالطبيعة التي ميزت اكتساح اللغة العربية للعالم القديم، فهذه اللغة سبق لها أن ضربت بجرانها قبل مجيء الإسلام، ونزول القرآن بها بقرون لا تقلّ عن ألف عام، ونحن لا نعجب أيّما عجب لضياها طالما أن إبداعها الفني، وتواصلها الحضاري، وكل ممارسة بها، إنما كان يقوم على الطابع الشفهي، وما وصلنا منها مسطوراً في الصدور، إنما هو إرث حقبة عديدة موعلة في قدمها، لا إرث قرن أو قرنين كما يؤهم غير واحد من الدارسين، لأن ما يُمارس شفويا بين قوم زالوا لا يمثله قوم خَلَفُوا، وما استطاع التدوين أن يتدارك، وبشقّ الأنفس، نماذج أدبية راقية ليس إلا سليل أو وليد تراث أدبي يتجاوز قرناً ونصفاً قبل الإسلام بزمن بعيد".

البعد العولمي الأثيل للعربية:

وسبق لي أن وقفت على هذه الخلفية العلمية للغة العربية في أكثر من مرة، ومما أميل إليه ميلاً قوياً إلى أن يثبت العكس أن هذه اللغة العريقة تواصل بها جماعات بشرية متحركة وأخرى ثابتة، فالصنف الأول مشخّص في أهل البادية أو الأعراب، والضرب الثاني مجسّد في سكان الحاضرة، ومن الصنف الأول ظهر ما يعرف بـ"بَدُوّ الآراميين"، قبل أن يتحصّر فريق منهم، وما بدُوّ الآراميين في بعض الرؤى المأنوس بها إلى حد كبير، إلّا هؤلاء العرب أنفسهم،

ولم تكن لغتهم إلا هذه العربية من بادية وباقية، دون الادعاء -طبعاً- بأن تلك اللغة هي -تماماً- اللغة نفسها التي أبدع بها الشعر الجاهلي، ونزل بها القرآن الكريم.

كان للعربية صولات وجولات مع لغات لا تقل عنها رقياً ولا حضارياً، ولم تنمَ العربية عن سواها من اللغات العريقة حضارياً مثل الفارسية، والرومية، والهندية، إلا لكون الذكر الحكيم نزل بها، فوسعته مبنى ومعنى، وحقيقة ومجازاً، وبلغته خير بلاغ للعقول والقلوب، للأولين والآخرين، ولألميين والمتعلمين، وللمتقدمين والمتخلفين،...

ليس من السهل على لغة بدوية لم يسبق لها أن عبّرت بما سيَحْتَمُّ لها لاحقاً، وفي وقت خاطف، أن تستوعبه وتعبر عنه، أن تتفاعل بين عشية وضحاها مع لغات راقية فاقتها ثقافة وعلماً وأنواعاً أدبية، ولكن هذا ما حدث، إذ سهّل على هذه اللغة أن تخرج من قوقعتها المحلية إلى العالمية، فرست في سواحل إفريقية الشرقية، وتغلّغت في أعماق إفريقية الغربية، مع ما في هذه المواقع من أودية وأدغال وشعاب وأخطار، ومع ما فيها من مائات اللغات واللهجات والأثنيات، وذلك كله لم يمنعها لأن تضرب بجرانها في ربوع شمال إفريقية برمتها، فضلاً عن جنوب أوروبا، دون أن تتكمش أمام ثقافات وفلسفة وعلم عصرية متطورة في فارس، والهند، والروم.

شفافية العربية وتعايشها ثقافياً:

إننا لا نشكّ أدنى شكّ في أن ارتباط العربية بالإسلام ساعدها وشدّ عضدها، وحرّرها من كونها لغة صحراوية معزولة عن العالم الخارجي إلى لغة عولمية مزدهرة ما عتّمت أن جعلت تبتلع غير قليل من اللغات واللهجات،

ووسعت مجمل الثقافات والعلوم تعريباً أو ترجمة أو هما معاً، غير أن هذا الإقرار الموضوعي لمشاهد اللغة العربية في ذلك الحين، لا يجعلنا في غفلة من أمرنا لأن ننسى الشفافية اللسانية التي وهبها الله لهذا اللسان كبنية لسانية داخلية مستقلة لا صلة لها بأي محرك خارجي بما في ذلك الإسلام نفسه، بدليل أن التواصل الحضاري والاجتماعي ونحوهما بهذه اللغة كان يصدر من ينابيع عناصرها المشخصة في بنيات صوتية، وفونولوجية، وسانتكتسية، ومورفولوجية، ومعجمية، ودلالية، وهي كلها بنيات ناضجة سلسلة ظل القوم يتواصلون بها تواصلاً سليقاً وشفهياً رداً من الزمن.

ومما تتميز به العولمة الخلفية للغة العربية منذ زهاء أربعة عشر قرناً أنها لم تُقرَّم الثقافات واللغات التي تماسكت بها تماسكاً سريعاً، بل تلاقحت وتعايشت معها، فتولدت من ذلك ثقافات جديدة لم يتفق الناس كلهم إلى اليوم على أن يُضفوا عليها مصطلحاً موحداً، حتى وإن كنا نفضل، مع المفضلين، تسمية "عربية-إسلامية"، إذا لا يمكن تصوّر ثقافة إسلامية كونية معرّاة كلياً أو جزئياً من ملامح عربية، ولو بالنبي واللسان، وبالعكس لا يمكن الإقرار بثقافة عربية يُفَيِّضُ لها أن تكون عولمية بدون الإسلام، ولا وجود لتصارع أحدهما مع الآخر، بل هما وجودان متكاملان.

المدى الوظيفي للعربية:

وحتى نقرب من توضيح ما أثير أعلاه بصورة غير مسيئة ولا مؤدلجة، وبعيدة كل البعد عن أية ذاتية مريضة، فإنه شتآن بين لغة يقتصر بعدها الوظيفي على شأن من شؤون الحياة ضيقة كانت أو واسعة، ولغة ذات بعد كوني سرمدّي تصل المؤمن بربه عبر خيط أبيض ناصع، إنها مشيئة الله لأن

تسمو وتسمق هذه اللغة البدوية التي لم يكن يُعبأ بها أكثر من رموز اتصال منقبة في ربوات تليّة ونجدية ومجاهل شبهه خالية، وقضى ربك قضاءه لأن تُكْرَم من بين ألوف لغات المغمورة لتلقّي خطابه وتبلغ رسالته للعالمين أجمعين.

وما أشرنا إليه سابقا ينبّهنا إلى حقيقة غائبة قلّما يهتدي إليها من ينظر إلى عمق الأشياء نظرة سطحية ساذجة، حين يحكم على الظواهر المتجانسة في وظائفها حكما عاما أو مطلقا بدعوى أن النماذج المثليّة متضاهية، أو بدوافع أن اللغة ما هي إلا رموز صوتية "يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"، ونحن إذ لا نماري هذا التوجه أي مماراة بكون اللغات كلها تؤدي وظائفها التواصلية الاجتماعية تبعاً لنشاط قومها الثقافي ومستواهم الفكري والحضاري، فإننا لا نجعل اللغات كلها في محكّ طاقويّ واحد، فهي تتضاهى مثلياً وتختلف قليلا أو كثيراً في التعبير عن الأبعاد التبليغية الممكنة من الأبعاد اللاممكنة "ومع تعدّد زوايا النظر وتتنوّع مجالات البحث والمقاربة، فإن ذلك لا يجوز أن يحجب عنا سمة جوهرية من سمات اللغة العربية، تتمثل في ارتباطها الكبير بالإسلام وبكتابه الخالد، وهو جانب أصبحت بعض التوجّهات الثقافية تراهن على تغيبه وطمسه بدعوات استواء اللغات وتمائلها في أداء مهمة التواصل، وسحب القداسة عن اللغة وتهيينتها لأن تدرس دراسة موضوعية محايدة... والواقع أن اللغات من حيث هي... لا تصوّر الواقع كما هو، وإنما تصوّر رؤية الناطقين بتلك اللغة إلى الواقع، ولذلك تتفاوت اللغات، ويغيب في بعضها ما يوجد في غيرها تبعاً لتباين النظم القيمية والمناخات الثقافية التي تنطلق منها⁽¹³⁾.

إنَّ العولمة الخلفية للغة العربية من عولمة الإسلام، وأعتقد، وأنا مجرد من أي نزعة دينية أو قومية، أن اللغة التي نهضت بهضم معاني القرآن وسبكه وتبليغه للأمم والمتعلم، للعربي والأعجمي، كانت مؤهلة على التفاعل والتلاقح والتثاقف مع ما تعانقت فيه بثقافات من أقصى شرق آسيا شرقاً إلى أوروبا غرباً.

العربية يُنبوع حياة وما بعد الحياة:

ومما لفت انتباهي ما وقفت عليه لدى ابن فرندة جاك بيرك، من أن اللغة العربية لا تمت "إلا مطلقاً إلى عالم الناس، فهي تبدو وكأنها معارة لهم، وهي تختلف دائماً في جوهرها عن لغة الحياة، وتزدي الرموز التي تستخدمها، الأشياء المتعلقة بالحياة اليومية، فهذه الرموز تحلق فوق الأرض،... وهو أنها تنزل من السماء، ولا تتبع من الأرض، وهذا هو مبدأ اللغة على الأقل،...⁽¹⁴⁾. والواقع الأقل رداً على هذا القول أن العربية لغة الحياة، ولغة ما بعد الحياة، فهي لغة الحياة بشكل مسرف حتى ما قبل نزول القرآن في صورها وأوصافها وتجريدها وتجسيدها، والشعر الجاهلي مثال حي على هذا المشهد الحياتي، ولغة ما بعد الحياة كما نجدها في مشاهد قرآنية، حيث تقرب لك البعيد، وتبعد عنك القريب، وتطير بك من المجهول إلى المعلوم، وتشخص لك ما لا يمكن تجريده، وتجرد لك ما لا يمكن تشخيصه، كل ذلك في قالب لساني ينساب انسياباً طيعاً ذلولاً يجعلك لا تحس إحساساً ما ورائياً، ولا تشعر بتاتا بأنك كامن في عالم، وهي كامنة في عالم آخر، واللغة العربية بهذا المفهوم الذي لا نرجو أن يكون فضفاضاً، تجمع بين الوجود وما هو موجود، بين المرئي واللامرئي، بين ما تم خلقه وإنجازه وما لم يئن حينه بعد.

ومن ثمّ، فإن الذين يزعمون لنا من غربيين ومستغربين أن الفصحى ليست لغة حية، إنما هم قوم لا يميّزون بين لغة الحياة وحياة اللغة، وبين لغة الواقع وواقع اللغة، إذ يمكن لحياة أن توجد بدون لغة، وواقع أن يكون بدون لغة، ولكنه لا يمكن للغة أن توجد بدون حياة، ولا للغة أن تكون بغير واقع، أتى لا يكون الأمر إلا كذلك، ولغتنا وعاوننا الذي لا ينفصم عنها؟.

واللغة العربية إذا كانت قد تجاوبت "مع معاني الإسلام واستوعبتها وأدّتها للناس، فإن ذلك لا يعني أن العربية لغة دينية فقط،... وإنما الصواب أنها لغة الحياة بكل شساعتها، وهي لغة تختزل وعي أمة كاملة متعددة الأعراق، أسهمت في بناء حضارة شامخة، ومثّل هذه اللغة ليس مجرد ألفاظ صماء تُرصّ على نمط تركيبى معيّن وفق نظام دلالي محدّد، وإنما تتحمل كل عبارة شحنة من ذهنية الأمة وذاتيتها وخصوصيتها، فلذلك يستحيل أن تقوم لغة أخرى مقامها أو تسدّ مسدّها" (15).

دور الإسلام في عولمة العربية:

وإذا كنا ألمحنا غير ما مرة إلى ربط عولمة العربية منذ قرون خلت بإشراق الإسلام في بقاع شاسعة من المعمورة القديمة، وإذا كان صاحب ذلك الإشراق تلاحق تعدّديّ آل مآلاً سريعاً إلى تربة ثقافية خصيبة، فإننا لا ننقص من قيمة وتأثير لواقع أخرى تبلورت في التنوع والاختلاف من المناخ إلى الأرض فالإنسان، ولكن مع ذلك "فإن الإسلام قد اعتمد اللغة العربية منطلقاً لإحداث وحدة ثقافية مشتركة بين المسلمين على اختلاف مواقعهم الجغرافية وانتماءاتهم القومية، فاستقطبت العربية سكان جزر القمر، وسكان بعض الجهات في العمق الإفريقي مثل نيجيريا، ومالي، وتشاد، والصومال، وأوغادين، وشمال إفريقيا،

وشعوباً كثيرة في آسيا الوسطى، والشرق الأوسط، وفي أوروبا، وفي مناطق عديدة من العالم، يُتلى فيها القرآن، ويُعبد فيها الله، ويُحمد ويمجّد بلغة القرآن" (16).

وها نحن أولاء نجد غير واحد من الأجانب ذوي النزعة العلمية الموضوعية يقرّون بدور الإسلام في نشر العربية عبر رُقع واسعة من العالم، فهذا العلامة الألماني يوهان فوك يقول: "لم يحدث حدث في تاريخ العربية أبعد أثراً في تقرير مصيرها من ظهور الإسلام. عندما رتل محمد (ﷺ) القرآن على بني وطنه، بلسان عربي مبين، تأكّدت رابطة وثيقة بين لغته والدين الجديد كانت ذات دلالة عظيمة النتائج في مستقبل هذه اللغة، ولا ينحصر هذا في المقام الذي أخذته العربية، منذ ذلك الوقت في العالم الإسلامي كله من حيث صارت لغة الدين والحضارة على الإطلاق ... وبذلك صارت العربية لغة الطبقات الموجّهة في دولة سرعان ما امتدّت رقعتها، في أوج اتساعها وانتشارها بعد سنة 700م، من إسبانية غرباً، إلى أواسط آسية نحو المشرق،... ولم يقم سقوط الدولة العربية (الأموية) سنة 750م لغة العرب معه في الاضمحلال والانحلال، بل لقد شهد عصر النور في أول الدول العباسية،... كما أن انحلال الدولة العباسية إلى دويلات عديدة مستقلة ... في سنة 935م لم يزعزع من مكانة العربية التي ربطت إذ ذاك جميع أقطار المدينة الإسلامية، على أنها اللغة الأصلية للعلم والأدب، برباط جامع وثيق" (17).

ويبرز يوهان فوك Johann Fück في موضع آخر "أن لغة القرآن قد صارت في شعور كل مسلم، أيّاً كانت لغته الأصلية جزءاً لا ينفصل من حقيقة الإسلام، حتى إن الفرس الذين باشروا الحكم إذ ذاك، لم يكونوا يستطيعون التفكير في رفع إحدى اللهجات الإيرانية لتكون لغة الدولة،... بل حتى

الشعوبيون الذين ادّعوا تفوّق الشعوب غير العربية، لم يستطيعوا أن ينقصوا شيئاً من مكانة العربية وقيامها مثلاً أعلى⁽¹⁸⁾.

تصوّرنا السداسي للعولمة اللغوية:

وهذا ما أكدّه مستشرق ألماني (نولدكه) بشأن تأثير القرآن الكريم في بسط اللغة العربية سلطانها بسيطاً لم يظفر به أي كتاب سواه في العالم⁽¹⁹⁾، بل تكهن بعض الدارسين الاستشراقيين الموضوعيين بأن هذه اللغة ستبقى حية، ويموت غيرها، ما دام القرآن يُتلى بها، وها هي اليوم صيحات تتعالى مؤكّدة خلود اللغة العربية خلوداً أبدياً ضمن اللغات الست من بين ألوف من اللغات المهدّدة بالزوال في ظل عولمة سداسية .

لا يمكن لوجود عولمة في شكل "قرية صغيرة"، كما يشاع من لدن منظريها، خارج هذه العولمة الفرعية، وكل شكل من أشكال عولمة أحادية هنا أو هناك ليس إلا مظهراً مخزياً من مظاهر الخداع والتسلط والهيمنة.

- عولمة مؤمركة شمالية
- عولمة مؤمركة جنوبية
- عولمة مؤسّنة
- عولمة مؤورركة
- عولمة مؤفرقة

أصول العربية غير حديثة:

وإذا ما حرصنا على الإشارة إلى العولمة الخلفية للغة العربية، فليس من باب اللغو أو الاستعراض المعلوميّ الذي يعرفه مؤرّخو اللغة العربية أفضل مني، ولكن من باب دخول البيت من بابه لا من نافذته، بمعنى أن اللغة العربية قديمة قدم أرقى وأعرق لغة ظهرت قبلها أو أثنائها في إحدى العولمات

السّت الفرعية، بل أثبت علماء هنديون مسلمون، وهم يقارنون بين كلمات أن العربية ليست ذات أصول حديثة مقارنة بغيرها من اللغات الهندية الأوروبية، والشيء نفسه ذهب إليه، أحمد مظهر في باكستان، حيث ردّ مائات الكلمات المتداولة أوروبياً إلى أصول جذرية عربية، والأستاذ أحمد مظهر رغم إتقانه الانجليزية ولغات أخرى إسلامية، فإننا لا نبادل الطروحات نفسها إلى درجة اعتبار "العربية أم جميع اللغات" أو كما قال الأستاذ العقاد: "وَقَّك كل التوفيق في بعض هذه الكلمات، ولكنه أوغل جداً في التخريجات المتتابعة للوصول بالكلمة إلى جذرها العربي"⁽²⁰⁾.

المستويات الذاتية أدل دليل عليها

وإذاً، إذا كنا نشيد بالعربية لاعتبارات لسانية لا تخصّها إلا هي بوصفها أداة تبليغية تتميز بخصائص تتبلور أسرارها حين نقوم بإجراء مقارنات وتقابلات بينها وبين بعض اللغات الحديثة بحياد نزيه، فإنه ينبغي أن نحذر ممّا قد يذهّانا من إعجاب مفرط، وعربيتنا الحديثة تعاني نقصاً فادحاً في مسيرة عصرها، ومعانقة مستقبلها، ثم إنّ مثل هذه الأحكام الماورائية باعتبار لغة من اللغات لغةً أمّا يتعارض ظاهرياً وباطنيّاً مع التعدد اللساني المصرّح به في القرآن الكريم "ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إنّ في ذلك لآيات للعالمين"⁽²¹⁾، ولكننا في الوقت نفسه نرجّح ما أبداه العقاد من أن اللغة العربية أقدم من معظم اللغات الحديثة، حتى وإن كنّا لا نتفق معه في كل الأسباب التي حشرها تدليلاً على ذلك⁽²²⁾، بل لسنا بحاجة، للدلالة على قدم اللغة العربية، بسرد أسماء حيوانات ومقابلتها بلغات أخرى، وأمامنا نصوص ساطعة حتى في العربية البائدة، لأن الاستدلال بمستويات لغة ذاتية أدل على قدمها أو حداثتها من الاستدلال على ذلك بألفاظ قاموسية حتى لو تعلّقت

بالحيوانات، لأن اللغات تخضع لأطوار من التغير وفق ما يطرأ على العالم الذي يحيط بمتكلمي لغة ما، بل "إن اللغة الواحدة تحلّ العالم على نحو مختلف ومتباين في المراحل المختلفة من تطورها، ولنأخذ على سبيل المثال التعبير عن الحيوانات في اللغة الألمانية القديمة واللغة الألمانية الحديثة، فالكلمة الألمانية "Tier" تدل على كل الحيوانات، ولكنها كانت في عصر من العصور تدل فقط على الوحوش ذوات الأربع في مقابل الحيوانات الأليفة، والكلمة الألمانية القديمة "Wurm" تعني الديدان والثعابين والعظايا والعناكب، ولكن اللغة الألمانية الحديثة تضع كلمة لكل من هذه الكائنات، وكلمة "Fogel" في اللغة الألمانية القديمة تشمل كل الطيور (وتعني) الآن نوعاً واحداً فقط) منها النحل والفراشات، بل والذباب..." (23).

وما كان للغة العربية أن تعرف تلك النقلة كمياً ونوعياً بفعل عوامل طارئة أو محض الصدفة لولا عراققتها في ذاتها وجدارتها اللسانية المتميزة بها منذ عصرها المسمّى "جاهلياً"، وهي بريئة من كلمات ومصطلحات لم يمارسها العرب القدماء في حياتهم ونشاطاتهم المحلية، ومقابل ذلك نجدها أنزى لغة معاصرة لها فيما تشمله من بنيات معجمية، واشتقاقات طيّعة مطردة، وقواعد أقرب إلى قضايا منطقية منها إلى مسائل خلافية، رغم ما شملته من كثرة كثيرة في المترادفات التي تعني وحدة واحدة عنها، لأن العسل والسيف، والأسد، والأفعى،... كل ذلك يمكن أن يُنبأ عنه. بمدلول واحد، ولكن ذلك كان برداً وسلاماً على الشعراء في رويهم وقوافيهم، وعلى الخطباء والبلغاء في سجعهم، وجناسهم، وترصيعا تهم البديعية التي ذهبوا فيها بفضل هذا الزخم في ثرائها كل مذهب دلّت على جدواها أكثر مما نمّت عن حشوها.

وإذا أحببنا أن نكون منصفين، فإن العربية اتخذت لنفسها سبيلا من الداخل في تطورها وترقيتها بألوف من الدلالات المستحدثة الجديدة قبل أن تستعير لاحقا ما لم يكن من ممارسة ذويها، وأعطت الأولوية المطلقة منذ عهدها الإسلامي المبكر إلى النهل من وعائها اللغوي الأصيل قبل أن تلتفت إلى سواها من اللغات التي سبقتها إلى ممارسات ثقافية وفكرية وعلمية لم يُقَيِّضَ لها أن تَحْطَى بها في عصرها "الجاهلي" الذي كان في غنى عنها، بالنظر إلى طبيعة العربي وحياته التلقائية البسيطة.

تنمية العربية نفسها داخليا:

ولعلنا لا نكون مبالغين إذا زعمنا أن المجتمع الجديد في العهد الإسلامي من غير العرب، كان أكثر التفاتاً للنظر في التبليغ بما تعود أن يتواصل به ويوظفه ويستعمله ويتعايش به من أسماء، وكلمات، ومصطلحات،... ولكن مستعملي العربية بالأصالة لَقَطُوا ما سمعوه من إخوانهم الأعاجم، وأضافوه إلى قاموسهم اللغوي السليقي، ومن هنا يمكن القول إن العربية نَمَتْ نفسها بنفسها من الداخل أكثر مما كانت عالة على غيرها من الخارج، إذ لا يرتاب أدنى ارتياب إلا جاهل أو متجاهل في تلك الألوف من المصطلحات التي غطَّت تغطية شاملة حقولا شتى في الفقه الإسلامي، والقراءات القرآنية على اختلاف قرائها وتباين أمصارها، وعلوم اللسان العربي، والنقد والآداب، وفي الدواوين - خاصة بعد تعريبها - وأنواع شتى من الفنون والعلوم، بل كان علم العرب ذوي العهد المبكر ناقصاً بلغات الأمم التي كانت تحيط بهم مثل الفرس والهند والروم، ولعل ما يشفع لهم ويعوّضهم ذلك النقص الكبير، أنهم انْتَبَرُوا إلى

التعريب، والتوليد، والاشتقاق، والنحت القليل، وفبركة مصادر صناعية جديدة... قبل أن يُنبَروا إلى الترجمة منذ العصر العباسي الأول، وهذا ما ينقص العربية حالياً، حيث انعكست الآلية، وأضحت الأهمية تُعطى لأية ترجمة دميمة على حساب التعريب.

العربية آنياً وتطورياً:

أين نحن .. مِنْ؟

إننا كثيراً ما نُنتَهِم في مناهج بحثنا من التَّغْيِي بِالْأَمْجَاد التي هي ليست من صنعنا هروباً من واقعنا أو شعوراً بالانهزام أمام حاضرننا، ولعل هذا أحد المناهج التي تَفَرِّق بيننا وبين نظرائنا الغربيين فيما نبحث وبيحثون، وفيما نفعل ويفعلون، ولذلك فلا عجب أن نجد أنفسنا غالباً أسرى مناهجهم الحديثة التي لا نتردد في استيرادها ومحاولة إسقاطها على علومنا الإنسانية والاجتماعية عسى أن نوفق مثلهم بعض التوفيق أو نقترِب منهم بعض الاقتراب.

لكن لماذا هذه الإلماحة التي قد يحقّ لبعض منا أن يراها خارج الإطار الذي نروم أن نَحْدِثه هنا؟ ربما جرفنا التفكير إلى إثارة هذه الغرابة في سلوكاتنا اللامُمنهجة، لأننا نشعر بفراغ هائل ومَهول في حاضرننا الممزَّق شَذَر مَذَر من محيطه إلى خليجه، ولربما لأن كبرياءنا لا تريد أن تعترف أصلاً بوجود أي غياب آنيّ فيما يعايشنا بغضّ الطرف عن نصّه وفصّه، ولربما نأبى عنوة أن نلتصق بالأرض، لأننا ألفينا منذ عقود أو قرون التحليق بأجنحة موجهة مستعارة لنا من غيرنا...

"ربيع" أم "خريف"؟

أيا كان هذا الأمر أو ذاك، فإنه لا تقوم قائمة لتاريخية دون آنية، ولكننا استحببنا أن نكون عموديين معوضين أفتيتنا تارة باستسلام، ومرة باتكال، كأنما العدم أَلَفْنَا وأَلْفَنَاهُ، وهذه الظاهرة العدمية في حياة شبه مزيفة تتمظهر في مجتمعنا العربي الذي أصبح يرثى لحاله أكثر مما تتمظهر في مجتمعات أخرى تملك قدرات مادية أقل، وها هي الشعوب والقبائل الأخرى تتفرج علينا، وتَشَمَّتْ بنا، خاصة فيما أطلق عليه "الربيع" العربي، ولو أنصَفْنَا الدهر لأطلق عليه "الخريف" العربي، وهي التسمية "المباركة" الصحيحة، سبحان الله ! متى كان تحطيم بنيات تحتية، وإزهاق مائات الآلاف من الأرواح، والتتكيل برموز الأمة، والرجوع عشرات السنين القَهْقَرِي ربيعاً؟ إنما نُخْرِبُ بيوتنا بأيدينا وأيدي أعدائنا، ولن نترد هوتنا إلا خرقاً واتساعاً، ولن تزيد تنميتنا الشاملة إلا تقليصاً وتخلفاً وأكثر لجوءاً إلى صانعي هذا المصطلح الزائف ليزداد غنى وعلماً واستقراراً، ويزداد "الربيعيون" فقراً وجهلاً وتطاحناً واقتتالاً على السلطة، مع أن الديمقراطية والتبادل على السلطة لا يتِمَّان إلا بتوعية الشعوب وتنقيفها وتثريها وبذر الآمال وحب الوطن فيها، وليس عن طريق العنف الداخلي والطيران الحربي الخارجي، إنهم والله لا يحبوننا ولا يكرهوننا، سواء رأسنا ديكتاتوري أم ديمقراطي، الأهم من ذلك أن يخنع لأوامرهم ونواياهم، ويتلزم بعلو السقف الذي رسموه وإلا أسدوا عليه وجعلوا دمه هدراً.

هل نحن آنيون أم تاريخيون؟

على أية حالة، "فرق كبير أن نتحرك من شيء يحمل ذاته بذاته، ومن شيء آخر لا يتاح له أن يحمل ذاته إلا بغيره، أضف إلى هذه الغيابية في الجنس الذي نريد تناوله مستقلاً في غيره أنه جنس يجمع بين آنية وتعاقبية، غير أن هذه الآنية والتعاقبية كلتيهما نمطان متذبذبان، وقد يتبادلان الموقعين

بحيث تؤول الآنية إلى سياقات تاريخية أو أنساق ثقافية أو اجتماعية، بينما قد تتجرد التعاقبية من كل دلالة تطويرية لتتقَمَّص فكرة جديدة مطبوعة بمسحات آنية⁽²⁴⁾.

ويرى باحثون لسانيون أن الفلسفة الزمانية تأسست "على مبدأ القول بأن حقيقة الظواهر كامنة في غيرها في ذاتها لأنها مستمدة من العلل والأسباب السابقة في وجودها على وجود المسبب والمعلول، فاعتترضت الآنية بالقول إلى حقيقة الظواهر كامنة في غيرها لا في ذاتها، باعتبار أنها مستمدة من تضافر الأجزاء داخل نظام الكل الواحد، وهكذا قامت الزمانية على تقديرها في وجودها، فجوهر الشيء هو وجوده، ووجوده كامن في بنيته ونظامه"⁽²⁵⁾.

على حين يعترض لسانيون آخرون على أن الآنية مصادرة واغتصاب للزمانية، لأن الآنية لا يمكن تجسيدها بزمان، وهي في الوقت نفسه لا تتسلخ بشكل ما عنه، وكل ما في الأمر أنها تستند إلى زمن افتراضي يرمز إليه بنقطة وهمية على المحور الزمني المتعاقب "إلا أن حيز هذه النقطة قد يكون يوماً أو سنة أو عقداً أو قرناً أو عصراً من العصور، فالآنية ليست إقراراً بالزمن ولا نقضاً، وإنما هي استيعاب لأبعاد "الزمانية" في تجمعها، فهي تعكس المنطق الصوري للأحداث، لأن الزمانية تبدو مترتبة من سلسلة نقط الآنية، أي أن الزمانية تحتوي على الآنية، فإذا بالآنية تستحيل منهجاً مستوعباً لأبعاد الزمانية بمقتضى أنه يدكّ الحواجز التطورية فيصهر التعاقب في بوتقة الوجود"⁽²⁶⁾.

اللغة نتاج إرث سابق:

لعل ما أثرناه بشأن العلاقة بين الأفقية والعمودية يحيل أذهاننا إلى فكرة استقلال البنيات من عدمها، إنَّ المتحمسين لظاهرة استقلال البنية عن تاريخها،

يريدون أن يتصوّروا أن ما لا يمكن تصوّره، إلا إذا ركبوا ما بعد أي تصور، حتى كأنه "لا الشمس ينبغي لها أن تترك القمر، ولا الليل سابق النهار" (27)، مع أن اللسان، كما صوّره أبو اللسانيات الحديثة (دي سوسير) يفترض "دائماً منظومة قائمة وتطوراً في وقت واحد، وهو يشكّل مؤسسة راهنة وإنتاجاً للماضي بصورة دائمة... وفي الحق أن العلاقة الرابطة بين هذين الشئيين ضيقة جداً حتى إنه ليعزّز علينا الفصل بينهما" (28)، بل "لا يمكن للمجموعة نفسها أن تمارس سيادتها على كلمة واحدة، فهي متعلقة باللغة بما هي عليه... ومهما أوغلنا في الزمن، فإن اللغة تبدو ميراثاً للحقبة السابقة أيّاً كانت... كما أن شعورنا القوي باعتبارية العلامة يوحي لنا بفكرة أن الأمور إنما حدثت بهذا النمط وليس بسواه، وفي الواقع ليس هناك من مجتمع إلا ويعرّف اللغة أنها نتاج إرث الأجيال السابقة، كما لا بدّ من تناولها بما هي عليه... وحالة لغة ما هي دائماً نتاج عوامل تاريخية، وهذه العوامل نفسها هي التي تفسّر ثبات العلامة، ونعني بذلك مقاومتها لكل تبدّل اعتباطي... وفضلاً عن ذلك، فإن التفكير لا أثر له في ممارسة لغة ما، كما أن الأفراد لا يشعرون إلى حد بعيد بقوانين اللغة، وإذا لم يشعروا فكيف لهم إذاً أن يغيروا فيها؟ وحتى لو قُدّر لهم مثل هذا الشعور فخليق بنا أن نذكر أن الوقائع الألسنية لا تثير إطلاقاً النقد، ونريد بذلك أن كل شعب مغتبط عادة باللغة التي ورثها" (29).

اللغة بين منهجين:

على أي حال، القائلون باستقلال البنية عن تاريخها، يريدون منا أن ندرس اللغة والأشياء التي تعيشنا ونعيشها دراسة أفقية، بدعوة أن هذا المنهج أكثر نجاعة من أية دراسة تطورية لا تبعد مؤثرات خارجية وقيماً اجتماعية، وبدعوى

أن لغتنا الإنسانية بوصفها نظاما اشاريا مستقلة عن أي ناطق بها أو منتج لها أو مبدع فيها، وعلى أن ما نتواصل به من علامات لسانية لها قواعدها المنضوية تحت نظامها اللساني العام الذي يكون نسقا مغلقا على نفسه، بحيث يوجه كل نسق بنية لا تمثل إلا نفسها ومرة واحدة.

ومن حسن الحظ أن هذا الاتجاه النبوي الذي ظهر منذ مائة سنة، لا يتجاهل أن لغتنا التي نكتسبها طبيعيا أو اصطناعيا أو هما معاً معطاة لنا سلفا قبل وجودنا، ونحن لا ننكر أن البنية اللغوية لا تعدم من تلقاء نفسها نظامها التوازني داخليا، ومن ثم، لا تحتاج إلى مدّ خارجي، وإلا احتاجت دوماً إلى جيل سابق يخلفه جيل لاحق.

وإذاً، كل ما يدعونا هذا الاتجاه إليه أن نكف عن الاهتمام بسبر ما مرّت به اللغة من مراحل متعاقبة، وبدلاً من ذلك، فإنه يدعونا إلى معاينة شبكتها الداخلية التي بموجب قوانينها يطفو نظامها على سطحها الذي يهيئه المعياري ويدعو بقوة إلى الالتزام بحدوده الحمراء التي لا ينبغي لمتكلم أو مستعمل أن يمسخها أو يتجاوزها، وبعبارة أخرى هناك فرق واضح بين اللغة استعمالاً في مختلف مستوياتها وبحثاً ودراسة في ضوابطها، وهذان البعدان اللذان أصبحا يتضحان أكثر فأكثر في اللسانيات الحديثة هما قطبان من أقطاب النشاط الخلاق للغتنا.

لغتنا الموروثة خمسة مستويات:

ومع ذلك، لا أعتقد أن الإشكال يكمن بقوة في استعمال معياري ولا ملاحظة وصفي بقدر ما يكمن في نوع اللغة التي نتحدث عنها، فنحن معاصر الدارسين العرب، لم ندرس، فيما أعلم، لغتنا من حيث مستوياتها العليا

والوسطى والدنيا، دراسة لسانية كافية، ولا أقول الأشكال مع أن لغتنا الموروثة خمسة مستويات كبرى على الأقل":

(1) لغة ذات مستوى أرفع، وهي لغة القرآن والشعر والآداب الرفيعة، ولا تكاد هذه اللغة تتحقق اليوم إلا خطياً، ومن حسن الحظ أن الخط لم يحجب عنا الكشف عن لغتنا الأصل المتمثلة في تلك اللغة الشفهية الحية التي تبدو لنا اليوم لغة صامتة أكثر منها حركية.

(2) لغة وسطى ذات مستوى راقٍ، وهي لغة لا تخلو في تبليغها من توازن بين نطقها وكتابتها، بحيث أضحي كل من الاثنين ينم أحدهما عن آخرهما وفي آنٍ، ولا تعارض بينهما، ولا يوجد فيها إلا وحدات قليلة جداً لا تُقرأ مثلما تُكتب خلافاً لما نعرف في بعض اللغات الأخرى كالفرنسية أو الإنجليزية مثلاً.

(3) لغة عامية، وهي لغة بيّنة إلى حدّ ما، لأنها منشطرة انشطاراً مباشراً عن المستويين السابقين.

(4) لغة دارجة الأكثر انحطاطاً وتهجيناً من العامية، وهي أضيق رقعة من العامية.

(5) أشكال لغوية اجتماعية ومهنية لا حصر لها، تواصلاتها نابية قابلة للملاحظة وحرونة على التدوين.

اللغة استعمال تجدي:

ولعل الأهم مما ذُكر أنه يجب علينا أن نعي متى نكون آنيين، ومتى نكون تاريخيين، أي يجب أن نميّز بين قواعد تتواصل بها الجماعة اللغوية المتكلمة عملياً وبين وصف نتخذه سبيلاً لاعتراض أو قبول تلك القواعد المطبقة في عملية التواصل أو قبول تلك القواعد المطبقة في عملية التواصل اللغوي، خاصة بعد ظهور "البنى النحوية" لتشومسكي الذي أبدع فيها أيما

إبداع بثورته في وجه البنيويين، وبنظريته التي ترى أن أغلب الجمل الموظفة في مدونة هي جمل لم يسبق لها أن صيغت بالكيفية نفسها، لأن كل جملة في نص لا ترد إلا مرة واحدة.

والملاحظة السابقة تلفت انتباهنا إلى أن ما نستعمله من جمل في لغتنا العادية استعمالات متجددة غير مستهلكة في معظمها من ذي قبل، وهذا ما يؤكده تشومسكي بقوله: "وبالإمكان أن نعتبر، بصورة مؤكدة، أن عدد جمل اللغة الأم التي نفهمها حالياً ومن دون أي شعور بالصعوبة أو بالغرابة، عدد هائل، وعدد النماذج القائمة ضمن استعمالنا اللغة الاستعمال العادي والتي بالإمكان فهمها بسهولة يصل إلى رقم أعلى من عدد الثواني في حياة الإنسان، وبهذا المعنى يكون استعمال اللغة تجديداً"⁽³⁰⁾.

الشعر واللغة وجهان لعملة واحدة:

ومع ذلك، فإننا لا نتفق كامل الاتفاق مع تشومسكي بالنسبة للشعور اللغوي من عدمه، ومما نراه أن الشعور واللغوية وجهان لعملة واحدة، ولا يمكن لإنجاز لغوي أن يتم أدنى لحظة يمكن تصورها بمعزل عن حضور شعور هذا الإنجاز، ولكن ضالته اللانهائية في الصغر هي التي تفقد المتكلم الطبيعي بالشعور في خطابه، بخلاف المتكلم غير الطبيعي في لغة مكتسبة، ويمكن أن نضرب مثلاً هنا بنفسه حين أريد أن أنتقل من لغتي المنطوقة، مع كل من دبّ وهبّ إلى لغتي الفصيحة خاصة على المستوى المنطوق، أما في كتابتها فيكاد الأمر يقترب سلسة ويسراً من عاميتي المنطوقة، وكلما كنا أكثر إحساساً بلغتنا كنا أقل جودة وبلاغة فيها، وأبعد عنها إتقاناً وسيطرة، والعكس بالعكس.

هل ثنائيتنا اللغوية لغة سرمدية؟

هل هذه الثنائية اللغوية الذاتية لعنة سرمدية أبت إلا أن تصحب اللغة العربية منذ أول لحن سُمع في العراق أو حتى في مدينة الرسول عليه السلام؟ إن لغتنا واقع اجتماعي لا واقع لغوي، بدليل أنه يمكننا أن نعبر عن أغراضنا المختلفة بلغات مختلفة، بمعنى أن ثنائيتنا اللغوية الذاتية ليست لغة أبدية لو ملكنا الإرادة الصادقة والآليات الإجرائية للتخفيف من حدّتها واستفحالها لحظة بعد لحظة.

من هم حماة العربية؟

وربما لا أجدني ناشراً إذا غلب قولي على لساني مُدّعياً أن أرباب هذه اللغة من محيطها إلى خليجها أضحو لا يبالون أدنى مبالاة بما غدا يعتري هذه اللغة الشريفة على مرأى ومسمع منهم دون أن يحركوا بنانهم، ومما هو غريب حقاً أن قادة هذه اللغة اليتيمة اجتمعوا مراراً على كل ما يختلفون ويتنافرون، وأحياناً يتنازعون، ولكنهم لم يتلاقوا مرة واحدة من أجل حماية هذه اللغة ودسترتها إلزامياً لا خطياً، وعلى العكس من ذلك سمحوا لأصوات ناعقة ناعبة منكرة تُبثّ من محطات تعمل على تهجين اللغة العربية وتلوينها على مدار الأربع والعشرين، الأمر الذي زاد هذه الثنائية ثنائيات لا حصر لها.

لعل هذه الاستطرادة الفضولية التي قد تكون جرفتنا رغماً عما نحن بصددته تنبئ صغيرنا وكبيرنا أن لغتنا العربية، ونحن في بداية العقد الثاني من هذه الألفية، تعيش اضطراباً وواقعاً مختلفاً بين آنيّتها وتاريخها، ولتكون لغتنا على سكّتها الآمنة، ينبغي على ذوي الحل والعقد أن يرمّموا بنيّتها التي غَدَتْ

هشة أكثر من أي وقت مضى أمام مدّ دون جزر لعولمة لا ترحم، ولا تُبقي ولا تذر.

العولمة المستقبلية للغة العربية:

أمل ألا أكون منحرفاً عن جادة الصواب، إذا قلت إن العولمة المستقبلية للغة العربية مرهونة بعولمة عربية تنفذ أقطار السموات والأرض أسوة بنفوذ شعوب وأمم في العالمين الغربي وحتى الآسيويّ الأقصى، وخاصة في ضوء ما يجتاح فضاءنا بل بيوتاتنا العربية من ثقافات ولغات وابتكارات نستوردها ما بين مخيرين ومجبّرين، لأنه لا حول لنا ولا قوة على دفعها.

لكنّ أنى لعربية عربية أن تلج عالميتها، ونحن صرنا نأخذ أكثر مما نعطي، وملتهم أزيد مما ننتج، ونقدّ أفحش مما نبدع؟ بل أنى لعربية عربية أن يقيّض لها أن تنهض من سبات طال أمده، واستقلّ دواؤه، منذ سقوط بغداد شرقاً فالأندلس غرباً، ولغتنا العربية اليوم بين أبناء جلدتها تعيش حياة غير حياة ذويها، وتعانق واقعاً لا يمتّ بصلة وثقى إلى واقع أهليها في سوقها، وشارعها، وملعبها، ومخبرها، وإدارتها، ومعملها، وجامعتها، ومحافلها الجهوية والقارية والدولية؟ أنى لهذه اللغة أن تظفر بمستقبل شبه مضمون، وها هي ذي تُضرب وتُعزى من جديد في بغداد، وتحاصر في دمشق، وتقرّم في طرابلس؟ لم تُردع اللغة العربية عن هذه العواصم العربية الثلاث محاولة من غزاة القرن الواحد والعشرين في ثوب شفاف جديد من باب الصدف أو توارد الخواطر، بل لأن العربية أكثر، بل أعمّ استعمالاً في جميع مرافق هياكل الدولة إدارة وتعليماً ودبلوماسية وممارسة في العلوم التطبيقية، بما في ذلك الأبحاث الفلكية والطبية والزراعية والذرية.

ماذا نفعل بديموقراطية غربية مزيفة عَرَضِيَّة، إذا كان ثمنها الانبطاح والتنازل عن أهم مقوّم سيادي يمس هويتنا في لبها؟ رحم الله القائل "سلطان جائر أو لا قُوْم فاسدة"، أجل ثمّ ألف أجل، "دكتاتور" عربي يُحيي العربية، ويحميها، ويرقيها، ويبعث تراثها وصلا لتليدها بحديثها أو زمنيتها بتزامنيتها، ويأمر أمراً صارماً باستعمالها في جميع هياكل دولته خير من آخر "ديموقراطي" لا يهمه إلا التعددات السياسية والخزعات الحزبية الشاردة.

هل عربيتنا تحظى حُظوتها؟

أتى لهذه اللغة أن تحظى بقدر قليل أو كثير مما ستحظى به لغات أقلّ منها مجداً، وأصغر تاريخاً، ودونها ثقافياً وأدبياً وحضارياً وانتشاراً وتأثيراً، وأنت تسمع وترى أثرياءها يهدرون ملايين من الدولارات على منشآت خارج بلادهم العربية، ولا يجودون بدانق واحد على حمايتها ونشرها وترقيتها وخلق حوافز تشجيعية لتحبيبها والإقبال على البحث والابتكار بها... وإلا خسارة ثريّ عربي زهاء نصف مليار جنيه استرليني من أجل عيون فريق رياضي إنجليزي في ثلاث سنوات متتالية، واللاحق أعظم، ماذا يجني وراءه إنسان حُكْم عليه بالانتماء إلى هذه الأمة المسماة عربية؟ أما كان أولى ثم أولى أن ينفق هذا الثريّ من خبايا أرض مباركة قسماً من هذه الأموال المستثمرة باطلاً في رعاية إنشاء معجم دلالي تطوري أو نحو ذلك خدمة لهذه اللغة التي تعددت أمهاتها عبر أشتات من المُهْد، وحروب من الزعامات؟ بل هل تصدّقون إذا قلت لكم

إن مكتبة عامرة في بلد الكنانة بألوف من المخطوطات النفيسة القديمة تؤرّض، ولا تجد من يجود عليها لإبادة هذا السوس الراتع فيها؟.

هل مستقبل العربية أسوأ من راهنها؟

إن مستقبل اللغة العربية، كما نتصوره، وفي ظل غياب عورية عربية جامعة، سيكون أسوأ من ضياعها الحالي في خضمّ لهجات مشرقية منكّرة، وأخرى مغربية لا تخلو من رطانات أعجمية، إذ كلما كثرت هذه اللهجات والتكلمات الهجينة في وسطنا إلا وازدادت الفصحى مصلاً séronégatif، ونحن ننظر إليها نظر المغشي عليه من الموت.

لا أجدني إلا أقرب إلى التشاؤم والإحباط ممّي إلى التفاؤل والآمال، إذا أبديت ما في نفسي، وقلت: إن مستقبل اللغة العربية غامض غموض جدوى وجود ذويها الآنيين بين الشعوب والأمم الناهضة التي تجاوزت خلافاتها، وأصبح العالم من حولها يحسب لها ألف حساب، علماً بأن عوامل تدانينا أقوى وأوفر حظاً من دوافع تنائينا، ولعل اللغة العربية ستكون أنشط بارقة من بوارق تآلفنا، وأبين بادرة من بوادر وجداننا المشترك، وليس معنى هذا الكلام أننا نعمل على إقصاء لغات الأقليات التي تتضوي تحت هذا الفضاء الشاسع، بل من واجب العرب كل العرب العمل على حماية هذه اللغات الوطنية بالأصالة وتعليمها للنائشة في إطار تعايش لساني اجتماعي، وتترك الأمور للزمن وحده ليكون الفصل الفاصل بيننا وبين هذه اللغات، ولكن كل ما في الأمر أننا بحاجة إلى لغة جامعة توحد الناس من محيطهم إلى خليجهم، ولا أحد يختلف مع الآخر، في أن لغة التوحيد هذه لن تكون غير العربية الفصحى.

وجوب انطلاق عولمة العربية من داخل أوطانها؟

وهل هناك من ممار منا أو من غيرنا يماري قليلاً أو كثيراً في أن العولمة المستقبلية للغة من اللغات ينبغي أن تسود سيادة مطلقة داخل حرمها الفضائي قبل أن يُقَيَّضَ لها أن تطرق باب العالمية ؟ إننا لا نطمع لا في وقتنا الراهن، ولا في عقود لاحقة أن تندمج العربية بلغات فرضت نفسها لتكون لغة تواصل عالمي منذ مائة سنة ونيف، وهي لا تنفك أسيرة أهليها، مادامت أنها تُسْتَعْمَل استعمالاً متفاوتاً بين العرب أنفسهم، وفي مجالات واسعة في بلد، وضيقة في بلد آخر.

العربية أمام حاجزين خطيرين

ومن واقع حاضر اللغة العربية نستشرف أن العرب سيجدون أنفسهم أمام حاجزين تقليديين، لكنهما سيستفحلان أكثر فأكثر في غضون منتصف هذه الألفية، وهذان الحاجزان النكودان يتجلّيان في المزيد من تلوّث الفصحى وتهجينها برطانات لا تزيد من يوم إلى آخر إلا منكراً وتشويهاً، وستزيد هذه الرطانات قوة وغلبة على حساب المستوى اللساني السليم، وأما الحاجز الثاني، فيكمن في مبالغة مفرطة في الترجمة على حساب التعريب والإبداع من الداخل، وفي إقبال الباحثين على لغات أجنبية يطوّرونها من خلال ممارستهم المخبرية والتطبيقية.

ضرورة إدراج العربية في أي مخطّط

وإذا ما أريد لذوي الحلّ والعقد أن يكون للغة العربية عولمة مستقبلية، فمن الأولى أن تدرج فيما يُخطّط، ليكون لها أولاً حظوة عوربيّة على مدى العقود الثلاثة القادمة، وأن يكون لها دستور عربي مشترك يلزم كل المنتمين إلى الجامعة العربية، وخاصة في الأطوار الجامعية، ومراكز التكوين المهني، ومراكز البحث والمخابر في جميع الاختصاصات، مع العمل على إنشاء قواميس مصطلحية مشتركة مُلزِمة لكل المستعملين والباحثين والمدرّسين، فذو النورين سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) حين جمع القرآن في نسخ موحّدة، أمر بإحراق ما سواه من صحف، لأن لغة لا تتطور داخليا أو خارجياً إلا بتوحيد مصطلحاتها، ونعني بالمصطلح الموحّد المداليل العلمية، والتقنية، والأدبية، واللسانية ونحوها.

وبال السمعى البصرى على العربية:

وكان يمكن للقطاع السمعى البصرى الذى غدا ينمو هنا وهناك كالقطريات، أن يسهم فى تنمية اللغة العربية، ويساعدها على ولوج العالمية، كما سبق لها أن ولجته وهيمنت عليه ربحاً من الزمن، ولكن ها هو واقع الحال يبين لنا أن هذا القطاع الحيوى لم يسهم ذلك الإسهام المحمود الذى كانت تتمناه العربية لأن تنمى، وتثقى، وترقى، بل كان يمكن لهذا القطاع الخطير الذى يشدّ إليه ملايين العرب يومياً أن يعمل على بثّ مستوى لغوي وسطيّ فصيح لا يستعصى فهمه على الطبقات الوسطى وحتى الدنيا ثقافياً، لكون العاميات العربية الأشتات متباينة تبايناً هائلاً فيما بينها إلى درجة استحالة تفاهم عربيّين بوساطة عامية كل واحد منهما، ولكن هذه العاميات على غزارتها

قريبة من الفصحى الأم، مما يُيسّر لكل قطاع تهذيب عاميته، لتتحول من تَوْها إلى مستوى تواصلِي يفهمه هذا وذاك سواء بسواء.

تجربة فرنسا اللغوية:

وإذا ما جاز لنا هذا الغرض أن نلتفت إلى تجارب غيرنا، فإن فرنسا التي لم تأل جهداً، ولا ادخرت وسعاً في إزهاق العربية الفصحى في بلد كالجزائر، لم يقل ساستها ومثقفوها ورجال الفكر فيها "قلندع الناس يتكلمون باللهجات التي ألفوها، بل قالوا: "يجب أن نقضي على هذه اللهجات،... لِنَسْعَ إلى رفع لغة الحوار والكلام إلى مستوى لغة الكتابة والأدب، وإلا لما تقدّمت اللغة الفرنسية تقدّمها المعلوم،...".

غير أن ما أشار إليه الأستاذ ساطع الحصري أعلاه إشارة صادرة من نفس واحدة وعاصمة واحدة، أما ما يخص لغتنا العربية، فعادة ما ينبع من هوية مقاربية وعواصم مختلفة، وهذا هو الفرق بيننا -نحن العرب- وبين سوانا، كأنّ أوامرنا نواهيها، وفرنسا لم تقض على اللغات، ولكنها صهرتها صهراً أو قل دانت بعضها ببعض، لأن الفرنسية الحالية نفسها أصلها لهجة محلية، بل إلى غاية الثورة الفرنسية (1789م) لم يكن يمارس اللغة الفرنسية أكثر من ثلثي سكان فرنسا⁽³¹⁾، ولذلك، فإن المقارنة هنا لا تجوز بين لغة حضارية ترجع إلى أكثر من أربعة آلاف سنة خلت، ولغة تعود إلى خمسة قرون.

العولمة المستقبلية للعربية بأيدي العرب:

ما من شك في أن العولمة المستقبلية للغة العربية بأيدي العرب أنفسهم، دون أن نقّل من أهمية العالم الإسلامي الذي يتبنّاها لغة رسمية، ولو كانت

هذه اللغة محظوظة تاريخياً أكثر مما كانت، ومما هي عليه الآن، لهياً الله لها أن تكون لغة أولى في بلدان إسلامية، وألا تقتصر ممارساتها في أداء تكاليف الشرع، ولكن كتابة لغات إسلامية بالرسم العربي، بخلاف التركية المرتدة ولغات بلقانية بعد صراع مرير وطويل مع الحرف اللاتيني، كما هو الشأن نفسه في دول إفريقية بشقيها الغربي والشرقي، لا يعد بالنسبة لمستقبل اللغة العربية أمراً بسيطاً أو ثانوياً، الأبجدية المتواضع عليها تنبئ عن أصوات اللغة خطياً، وتسهل اللغات الإسلامية إلى العربية وتقربها منها، وتذلل سبل الترجمة والتعريب.

وقد يبدو أن ما ألمح إليه في جانب من هذه الكلمة يشكّل صورة قاتمة لمستقبل اللغة العربية، وأنه يتجاهل ما أنجز من مشاريع تمخّضت من مجامع، ومجالس عليا، وهيئات تابعة لجامعة الدول العربية، والواقع أننا لا ننكر أدنى شيء من ذلك، بل ننوّه به لتوحيها قويا، ويجعلنا ننحني انحناء تقدير وذهول، ولكن هؤلاء علماء واصلوا سيرة من تقدّمهم من نبغاء ومجتهدين، أي عملهم ينتهي بانتهاء ما يؤسسون ويصنعون من قضايا مصطلحية ولسانية عامة، ولا سلطان لواحد منهم في هذه الهيئة أو تلك على تطبيقها عمليا أو حقلياً، مما جعل هذه الأعمال النظرية تكثر وتتراكم، ثم تُنسى أو يتجاوزها الزمن لعدم مساهمتها للتوليد اللغوي اليومي بالمئات في شتى الاختراعات.

لغتنا أكثر من تواصل:

أجل، قد يحقّ لامرئ متشائم أن يفرس هذه الصورة القاتمة لمستقبل اللغة العربية، إذا ما قاس غدها على المدى المتوسط بحاضرها المتقاعس، وإذا ما لاحظ سياسة لغوية مغيّبة أو غير واضحة، فاللغة ليست أداة تبليغ آني

وحَسْبُ، حيث يقتصر فيها على التربية والتعليم ومحاربة الأمية، وتذليل التواصل الاجتماعي، بل اللغة تنمية وتخطيط يجب أن يصحب آمال الأمة في بلورة هويتها المتميزة بين الشعوب، وإلا فلنغلق هذه المدارس والجامعات اجتزاء بلغة الأمومة الطبيعية التي تُعَدُّ هبة من السماء لا ننفق من أجلها دانقاً، علما بأن عاميتنا على هجانتها وامتاعها من أداء غير نفسها، هي التي أسهمت بشكل عظيم في حماية كمّية ثريّة من أمها الفصحى، وليس العكس، خاصة في بلد كالجزائر، ضُربت عليه الأمية، ومُنِعَ التعليم العربي، لأن الدخيل أيّ دخيل قد يُيسّر له، ولو إلى حين، امتلاك رقاب شعب بأكمله، ولكنه يتعذر، بل يستحيل، عليه أن يسترقّ جملة واحدة من لغة الشعب الطبيعية حتى لو كانت هذه اللغة بدائية أو اشارية. وإذا ما أراد العرب أن ينهضوا يوماً قدوة بمن تقدمهم من أسلافهم العظماء أو أسوة بمن يعاصرون من شعوب لم تزدهر بغير لغاتها، وعلماً بأن بعضاً من هذه الشعوب تحوز لغة ذات منظومة صوتية وألفبائية تعدّ أقعد أداة اتصال صوتي ورمزي على سطح المعمورة، ومع ذلك لم يحلّ هذا التعقيد الشائك دون رقيّها أدبيّاً، واقتصادياً، وعلمياً... تستعمل لغاتها المعقدة صورةً صوتيّةً سمعيّةً وكتابيّةً، وهي على يقين واقتناع بأن إحدى هذه اللغات لن يقيّض لها، ولو على المدى البعيد، أن تحظى بالعالمية، ولسنا هنا في موضع المقارنة لبيان أن الحروف العربية تعدّ أصلح من أي أبجدية سواها لكتابة الصورة الصوتية السمعية في أي لغة كانت، فالحروف اللاتينية مثلاً لا تستخدم إلا في عائلة لغوية واحدة كبرى (الهندية الأوروبية)، بينما الحروف العربية تستخدم لرسم لغات عديدة خارج العائلة السامية، ولذا فإن الطاقة هنا لا تكمن في كتابة لغة واحدة ينطقها مليار متكلم أو أكثر، بل بعدد اللغات المتباينة أرومة حتى لو قلّ ناطقوها... قلت: إذا أراد العرب أن يفيقوا من إغفائهم يوماً ما، فإنهم لن ينهضوا ويزدهروا بغير لغتهم، وإلا فماذا جنت

الشعوب الإفريقية الناطقة بلغات لقيطة من تركات الاستعمار؟ بل ماذا فعلت تركيا حتى الآن، بعد استبدال الحرف العربي باللاتيني، إذا ما قارناها بدولة أوروبية؟ ومثل تركيا ألبانيا ودول في غرب وشرق إفريقيا.

الجديد في لغة إضافة لا تقويض:

وإذا كانت اللغة لا يمكن أن تخرج عن بنيتها الاجتماعية، فإن هذا يعني بكل بساطة أن اللغة لا تتطور خارج استعمالات في قطاعات إنتاجية وإبداعية واقتصادية وتجارية وفنية وتقنولوجية، وإلا أصبحت اللغة عالية على مجتمعها الذي تضطره ظروف الحياة والعصر والتواصل الفعال إلى نبذها والنفور منها إن عاجلاً أم آجلاً.

ومع ذلك، ينبغي ألا تكون لدينا ثقة مفرطة في لغتنا مقابل غياب هذه الثقة المطلقة في نفوسنا، وأن التطور الذي يعتري لغة من اللغات لا يظهر على أساس بناء هيكل أو مجد لغوي جديد على حساب تقويض وتقزيم إنجاز قديم، إذ ما يضاف ويستحدث في هذه اللغة أو تلك يجب ألا يعد أكثر من ملء فراغ لساني عادي تظل أية لغة، أيا كان ماضيها وحاضرها، في أمس الحاجة إليه باستمرار.

ولقد أجمع النبهاء من اللغويين قدمائهم ومحدثهم على أن التطور الذي يمس اللغة لا يعني إلا تكميلاً لما ظل ينقص بنيتها الداخلية من قياس واشتقاق ونحت، وترجمة كلمات خارجية، وهذا التطور لا يمس النظام الصوتي فيها، على الرغم من أنه من أكثر الأنظمة تعرضاً لتفاوت نطق الأجيال وحتى الأعمار والأجناس والأجانب عن لغة ليست بلغتهم.

هل لكل عصر لغة؟

وأما الاعتقاد الشائع بأن لكل عصر لغته، فإن هذا لا يعني أن أنظمة اللغة تتبدل بتبدل العصور والأجيال، أي ليس لكل نظام سياسي أو اقتصادي لغة تقابله بنظام لغوي جذري نموذجي تماشياً وانسجاماً مع هذا النظام الجديد، على عكس الهزات الخارجية المتمثلة خاصة في العلاقات التبادلية بين الشعوب التي تؤدي إلى احتكاك اللغات بعضها ببعض دون اعتبار لغاز ومغزو. فاللغة العربية صالت وجالت مع الفاتحين طوال قرون، ولكنها بقدر ما أثرت في لغات الأقاليم المفتوحة تأثرت تأثراً موازياً بلغات أولئك الشعوب، وهذه السنة تنطبق على غيرها من اللغات العالمية قديماً وحديثاً، بمعنى أنه إذا كان معجم أية لغة مفتوحاً لاحتواء واستقبال عدد غير محدود من الألفاظ الحضارية والتكنولوجية التي تضطر إليها، فإن اللغة بوصفها بنية تحتية مستقلة بذاتها تتطور بفضل عناصرها الذاتية وخصائصها العامة من الداخل قبل أن تتطور من الخارج، والذي نعلمه أنه لا توجد لغة لا تملك استعداداً لهذا التطور من الداخل، وإلا أضحت عالية ثقيلة على غيرها من اللغات، لأن التنمية الاقتصادية والابتكارات الصناعية والمعاملات التجارية أصبحت اليوم معلومة، واللغة التي تستعمل في هذه المجالات وغيرها محكوم عليها بالوهن والانزواء في منطقة تؤول تدريجياً لأن تصبح في حكم التاريخ نسياً منسياً.

مدى حظ لغتنا من العولمة اللسانية:

إن العولمة باعتبارها عاملاً من العوامل الخارجية، لكن ليس أي عامل، ينبغي ألا يشغلنا عن العناصر الداخلية التي خُصّت بها اللغة العربية، ونعني بها تلك الأنماط المتصلة بمستوياتها، وعلى رأسها بنياتها النحوية والصرفية

التي لا تبرح في حاجة إلى المزيد من الصرامة المعيارية لتهيئة ما بقي من نصوص وتراكيب تراثية عالية المستوى، لكنها لا تزال متنافرة ومهملة.

نحن لا نتهاون بقوة العولمة بكل أشكالها، ولا سيما شبكات الاتصال والآثار التكنولوجية الحديثة، ولكن اللغة العربية لما لها من قوة دفع خارجي منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، فضلا عن طواغيتها اللسانية التي لا يجدها أو يرتاب فيها إلا جاهل بها، أو مُمارٍ عنيدٍ، يتيحان لها أن تكون في مصافّ أرقى اللغات العالمية إذا لم يتقاعس بنوها وحماتها، وإلا طرقتنا باب العولمة، ونحن في أوائل هذه الألفية الثالثة، طفيليين عليها، قد تقبلنا، وقد تَلَفُظْنَا، ولربما ازدرتتنا من غير سابق إشعار، وفي المقابل لا يمكن قبول الفكرة القائلة بأن اللغة الداخلية هي ثانية بالمقارنة مع اللغة الخارجية، ولئن أستساغ بعضنا هذه الفكرة بالنسبة لبعض اللغات الاصطناعية وحتى تقويم بعض الاعوجاجات في لغات ليس لها خلفية لسانية تاريخية مستقلة ولا تراث أدبي خاص بها، فإن هذا لا يصدق على اللغة العربية التي توجد في موقع تاريخي وأنا متوازن، بينها هي كلغة قائمة بذاتها، وبين من تعاقبوا على التواصل بها عبر الأجيال والعصور.

وما ألمحنا إليه أعلاه، لا يعني في مفهومنا أن اللغة العربية التي نملك اليوم ما هي إلا فكر بشري جاهز قيل وانتهى، أو كل ما ورد فيها جوهر موجود بقوة النطق والتخاطب، أو كما قال ابن فارس المتعصب لنظرية التوقيف: "ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحاً لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغة اليوم ولا فرق"⁽³²⁾. بل هي فقط جاهزة ومهيأة للاستعمال، وبقدر ما هي واقع موضوعي خارجي عنا بوصفها نظاماً أو ظاهرة مستقلة بنفسها، فهي مجبرة على أن تكون مجسدة في ناطقين بها، تعبر

عن مشاعرهم وطموحاتهم، وبكلمة واحدة تؤدي ما يناط بها من وظائف بسيطة ومعقدة بساطة وتعقيد مجتمعها.

نقاط استشرافية للوضع المستقبلي للعربية:

ومن الإجراءات العملية التي نتصورها لتحسين الوضع المستقبلي للغة العربية على المدى المتوسط والبعيد:

- (1) وصل زمنية العربية بتزامنها وصلا دائما ومطّرداً.
- (2) تهذيب العاميات العربية وتفصيحتها من خلال البرامج المدرسية، والتواصلات الشفهية، حتى تدنو من الفصحى.
- (3) تلقين الفصحى للناشئة المتمدرسين بخطوات تعليمية منهجية مدروسة سلفاً ومرحلياً.
- (4) تأصيل المصطلحات الحديثة ما أمكن إلى ذلك سبيلاً، لكن دون تكلف ولا تعسف.
- (5) أولوية المصطلح العربي على أيّ مصطلح أجنبي.
- (6) أولوية التعريب على الترجمة.
- (7) أولوية نحت المصطلح الأجنبي واخضاعه ما أمكن إلى ما تحتمله الأصوات العربية شرط ألا يفقد دلالاته التي وضعت له في لغته الأصل، على تلقّيه كما ورد في صورة صوتية تُعدّ غريبة خارج ناطقها بالأصالة.
- (8) إصلاح الخط العربي بإضافة ثلاثة رموز على الأقل حتى يكون مؤهلاً لرسم أصوات أجنبية متداولة كثيراً بيننا، في الصيدلية، والطب، وعلم الحيل، وعلم الفلك، والجيولوجيا، وعلوم البحار، والصناعات الهيكلية والمادية،...

- (9) وضع سياسة لغوية عربية مشتركة هدفها العمل الدؤوب، والتنسيق المتبادل، لمواكبة اللغة العربية ما يُستجد يومياً من مصطلحات.
- (10) صناعة أجهزة حاسوبية عربية تتماشى مع طبيعة الأصوات العربية ورموزها تماشياً ميسراً على المبتدئين.
- (11) إنشاء بنك مركزي لساني عربي لتخزين كل ما يتعلق باللغة العربية تاريخياً وآنياً.
- (12) صناعة معجم لساني عربي تعاقبي مع تخزينه مرحلياً في البنك المركزي اللساني العربي.
- (13) صياغة ميثاق لغوي عربي تتابع تنفيذه هيئة عربية منضوية تحت رعاية جامعة الدول العربية.
- (14) توحيد البطاقات العربية المتعامل بها دولياً على أن تتصدّر العربية اللغة الدولية الثانية المختارة من أية دولة عربية.
- (15) فصل العربية عن صراعات ساستها العرب ما بقوا غير متّحدين.

الصراع المستقبلي بين اللغات في ضوء العولمة:

ومع ذلك، فإننا نؤمن مطلق الإيمان بأن لغتنا المتبنّاة بعقد تواصل في ما بيننا لا تخرج أو تتحرف قليلاً أو كثيراً عن بنيتها الاجتماعية الشمولية في الممارسة والحياة أيّاً كان شأنها، وبمقاربة بسيطة، فإن اللغة المتواضع عليها اجتماعياً بين ذويها تاريخياً وآنياً ومستقبلياً يصعب عليها أن تنهض وتتحدى يومها وغدها خارج استعمالاتها في مختلف القطاعات الإنتاجية والإبداعية والاقتصادية وتوطئتها معرفياً وتكنولوجياً، وإلا فقد أضحت هذه اللغة عالة على مجتمعها الذي قد تضطره هموم الحياة وهواجس الطموح ومقتضيات العصر

إلى تولية باله شطر لغة أو لغات أخرى يتخذها ذريعة للتجاوب مع إحدى اللغات العالمية الموظفة عصبياً في الذرة، والتجارة، والمخبر، والورشة، والصناعة... إن عاجلاً أم آجلاً، وذلك تحت طائلة أن الناس كلهم شركاء فيها سواء مارسوها من قريب أو تفاعلوا معها من بعيد.

أجل، أضحت العولمة واقعا معيشا بمعظم أشكالها، وخاصة شبكات الاتصال ومظاهر الابتكار الحديثة، غير أن العربية لما لها من دفع خارجي قوي منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، فضلا عن طواعيتها اللسانية الداخلية، وعمّا تحمله من إرث خلفي معزّز بالقرآن الكريم المحفوظ بحفظها، يتيح لها أن تكون في مصافّ أرقى اللغات العالمية المتوقّعة بقاؤها وخلودها.

ومع ذلك، لكي تكون العربية في منعة من شبح أنياب هذه الكوكبية التي لا تشبع ولا تروى، ولكي تكون ذات حظوظ آمنة لمسيرة عصرها وتحديّ الألفية الثالثة، يجدر بذويها الناطقين بها، قبل سواها، أن يحزّروها من حصارها المصطنع الذي لا يوجد ما يبزّره لسانيا ولا عمليا، كتعريب المحيط الاجتماعي والثقافي العربي تعريبا نظيفا وشاملاً، وتوحيد المصطلحات ذات الانتشار الواسع والمشارك والتعامل الإعلامي (من سمعي وبصري)، والتواصل بها مع الجمهور العربي في مختلف الممارسات الرياضية والسياحية والأنشطة الأخرى الأكثر تأثيراً، دون التغافل عن تعريب التكوين المهني في كل مجالاته مع إنجاز دليل قاموسي للمصطلحات الموحدة بلغة عربية بسيطة خالية من مظاهر التلوث والتهجين.

العربية طرف مستقبلي بين اللغات:

وقد ينظر بعضنا إلى ما أثرناه نظرة ازدراء ولا مبالاة، بل ربما لا يوافقك أدنى موافقة بخصوص أي نوع من الصراع المستقبلي بين اللغات، لأنه يرى من خلال رؤية بريئة أو متسامحة أن اللغات، إنما خُلقت أو وجدت لتكْمَل بعضها بعضاً، وأنا شخصياً أميل في سياق خارجي ربما لا يخلو أحياناً من ومضات صوفية أو روحية تتجاوز أي بُعد من أبعاد إدراكي المحدودة، بأن اللغات لا تلتهم بعضها بعضاً التهاماً ذاتياً قصدياً مسبقاً، لأن اختلاف الألسنة آية من آيات الله أزلياً وسرمدياً.

أجل، التعدد اللساني البشري سنة كونية لا تَتَمَحَقُ بمرور عصر وقدم عصر آخر، ولا حتى بانمحاق جيل وخلافته بجيل آخر، بل ولا حتى بأفول مكان، لأن سُنَّةَ الله التي خلت في الأولين هي السنة عِيْنُهَا التي لا محوص للاحقين عنها، فإن لم تكن قلباً وقالباً، فهي ليست بأقلّ من أن تكون امتداداً تعاقبياً.

وأتمنى ألا يفهم كلامنا السابق أنه دعوة إلى التقليد دون التجديد، مع أنه ليس ثَمَّةَ ظاهرة تقليدية دون تجديد، ولا ظاهرة أخرى تحديثية دون تقليد، سواء في مسار سلوكنا وأسلوب حياتنا أم في تواصلنا وخطابنا، أمّا اللغة فهي من أكثر الظواهر تشبُّهاً في أفتيحتها وعموديتها، إذ ما تترجم عنه من مدا ليل ثقافية وصناعية وفكرية وأشياء مختلفة قد يتغير في شكل عموديته، ولكن الصور اللغوية تبقى هي دوالّ ومدا ليل.

ولكي تكون اللغة العربية في منعة من شبح أنياب العولمة، وذات حظوظ وافرة لمسيرة العصر وتحدي الألفية الثالثة، وتخرج من حصار فرضه عليها أهلها قبل غيرهم، منذ بزوغ فجر النهضة العربية، ورغم ذلك فإنّ ما أشير إليه لا يعدو إلا محاولات محتشمة أو مبادرات منعزلة في هذا البلد العربي أو ذاك،

لكي يتحقق كل هذا أو نصيب ملموس منه، يجدر بذويها النهوض بهذه اللغة وأن تعطى لها وللعاملين عليها العناية التي تليق بها.

كل لسان لا يوافق إلا نفسه:

وإذا كانت العولمة تشبه الهيمنة في كثير من وجوها، فإنها لن تظهر بأي شمولية جامعة مانعة حاضراً ومستقبلاً، لأن الوعي العالمي النزيه يدرك تمام الإدراك أن العولمة اللغوية تسير مسارها المرصود لها، بفعل تقدّم على حساب تخلف، وبفضل ثراء وقوة وعلم على حساب فقر وضعف وجهل، لكن هذه الظاهرة التي يشعر بها كل طرف منتصر مقابل شعور طرف منهزم، من حسن الحظ، لا ينسحب من قريب على لغات الشعوب سواء مَثَلَتْ أغلبيات أم أقليّات، ولكن العالمية "غالبا ما قُدِّمت على أنها منشأة مساواتية ترمي إلى إتباع الجدارة والمقام نفسيهما لمحكيّات المتحدّات الاجتماعية نوات الأهميات البسيطة والمجردة من الاعتبار كما للألسن الواسعة الانتشار، ما كان مقصوداً، في الحقيقة، بشكل لا واع، هو في الأغلب عملية تسلّطية تسعى إلى إقناع الجمهور بأن البنى المسجّلة في "الألسن الواسعة الانتشار"، والإنجليزية خاصة، كانت تتلاقى، حيث كان، بأشكال مختلفة ظاهرياً، ولم نكن نطرح السؤال، مثلاً، لمعرفة ما إذا كانت البنية الأساس للألسن المهيمنة، بواسطة فاعل (فا) ومفعول (مف) مجتمعين حول فعل (ف)، حقيقة عالمية"⁽³³⁾ مع أن كل لسان في واقع الأمر "يوافق تحليلاً خاصاً بمعطيات التجربة، ومعطيات التجربة هي ما نشير إليه في العادة على أنه العالم الذي نعيش فيه"⁽³⁴⁾.

إن الاستسلام لما يُسمَّى بالعولمة أسوأ من رفع راية بيضاء لقوة عسكرية، لكن إذا أردت أن تحظى بما يصهرك فيها صهراً ممسوخاً، فخليق بك أن تُعدَّ ما استطعت من آليات تعايش معها على قدر مقاسك.

صراع العربية المحتوم مستقبلاً مع لغات

إننا مؤمنون، من باب واقعنا لا من باب طبيعة لساننا، بأن اللغة العربية لن تكون مثل لغة حديثة كالانجليزية في سعة انتشارها ولا حتى الإسبانية، إلا إذا حلمنا بعالم لن يولد اليوم ولا في الغد القريب، لأنه لا يمكن لك أن توقف حركة العالم عقوداً حتى تهبط له لغة جديدة تحلّ محلّ الانجليزية، ولكن أقصى وأقصى ما نطمح إليه أن نكون نحن جزءاً من هذه العولمة بسلبياتها وإيجابياتها عسى أن تصير لغتنا العربية يوماً جزءاً منها أيضاً.

وكل امرئ شاء له قدره أن ينتمي إلى اللسان العربي مخيراً أو مُجبِراً، فإنه يتطلع إلى أن يكون هذا اللسان مدداً لا ندّاً للألسنة العالمية الأخرى التي سترغم إن عاجلاً أم آجلاً على التعامل معه تعامل الأخذ والعطاء، وتعامل السند الكفاء، لا تعامل النظر الذي لا يُحسب له أدنى حساب.

ومع ذلك، فإن اللغة العربية ستشهد على المدينين القريب والمتوسط صراعا لغويا أشدَّ اهتزازاً من صراعها العولمي القديم الذي كانت فيه هي الأمرة النهائية من آسيا شرقاً إلى أوروبا جنوباً، وكل الدلائل تثبت لنا أن هذا الصراع بدت بوادره منذ القرن التاسع عشر بصورة جلية، وكادت جهات فكرية عربية تتنبأه غير بعيد من مواطنها، لولا لطف الله، ووجود شخصيات عربية وإسلامية قاومت تلك الشطحات الغربية والتغريبية والرجعية، ولولا العولمة الحضارية القروسطية للغة العربية، ولولا...، ولولا... والصراع اللغوي المستقبلي، هل سيتم

بسعة انتشار لغة أم بنسبة عدد ناطقيها؟ إن الوضع الحالي يكشف لنا أن تسعين في المائة "من العناصر التي تتحرك في شبكة الانترنت هي بالإنجليزية، وحدها، وخمسة وثمانين من الاتصالات الدولية عبر الهاتف تتم بالإنجليزية أيضاً، وأن أكثر من سبعين في المائة من الأفلام التلفزيونية والسينمائية بالإنجليزية، وخمسة وستين في المائة من برامج الإذاعات في كل العالم بالإنجليزية"⁽³⁵⁾.

هل لن يبقى إلا أربع لغات مستقبلاً؟

وبناء على ما ألمح إليه أعلاه، فإن اللغة العربية يتواصل بها حالياً زهاء ثلثمائة مليون من المحيط العربي إلى خليجه، فضلاً عما يقارب مليار مسلم يتعاملون بنسبة متفاوتة باللغة العربية، ولعل هذا ما أوحى إلى الأديب الإسباني "كاميلوخوسي سيلا" (الحائز على جائزة نوبل الأدبية سنة 1989) أن يذهب إلى أن لغات العلم في تناقص مستمر، منتهياً إلى أنه لن يبقى مستقبلاً إلا أربع لغات عولمية، ذكر من بينها العربية إلى جانب الصينية والإسبانية والإنجليزية⁽³⁶⁾، حتى وإن كنا نستبعد هذا الاستشراف المستقبلي في حصر اللغات في أربع أو ست، فشعب يعتز بلغته يهون عليه أن يخوض حرباً عالمية ضروساً، ولا يتنازل عن لغته التي هي جزء من كيانه ووجوده الآني والمستقبلي.

الصراع اللغوي المستقبلي لا ينفطم عن رسمه:

وبما ينبغي أن نلتفت إليه أن الصراع اللغوي المستقبلي لا يقبل الانقطاع عن الرموز التي ترسم بها لغة من اللغات التي ستنتقل من التفاعل والتكامل إلى محاولة الهيمنة، من باب أن لا يسكن أسدان في عرين واحد، لأن الصراع

اللغوي الذي حدث في ماض قريب أو بعيد، بيّن لنا أن كتابة لغة بخط جديد قد يؤدّي إلى تعصّب قومي أعمى لا يراعي ثقافة ماثلة، ولا حتى ديناً حدث ذلك في تركيا منذ العقد الثالث من القرن الماضي، حيث جرى استبدال آلاف الكلمات العربية بأخرى تركية، مع ما صاحب ذلك من التكلف والتعسف باعتبار التطور الدلالي، ولذلك، فلا تعجب من التكالبات التي تحدث بدول إسلامية أسيوية لا تزال ثابتة على عهداها في رسم لغاتها بالحرف العربي.

لغتنا مسار حركي:

وإذا كنا نقبل بعض القبول، مادامت المسألة لا تقبل التعميم، الرأي القائل "إن اللغة العربية قضية عادلة كُلف بها محام فاشل"، فإنه ماذا يُراد لهذه اللغة مستقبلا حتى تكون نظيرا كفنا لمقارعة نظيراتها من اللغات المستقبلية؟ لا أحسب أن هنا إجراء استراتيجياً موحّداً بين حماتها وناطقها وممارسيها، لكن أسوأ ما نقف عليه، ونسمع به، تلك الأصوات التي تتغنى بتحديث العربية وعلومها وقواعدها أن تُحدّد أبعاد وميكانيزمات جلية.

اللغة أية لغة مسار حركي، ما في ذلك شك، لكن بشرط أن تظل اللغة سائرة بأمان وضمان دون أن تحيد عن سبّكتها تارة أفقياً، ومرة عمودياً، حتى اللغات "البدائية" لا تطاوعك فيما ترومه من تحديث فيها دون مقاومة شرسة، وفي مقابل ذلك، يمكن لأية لغة أن تتلاقح وتتفتح قرصاً واستقراضاً مع لغات أخرى أياً كانت فصيلتها، لكن هذه العملية لا تخص إلا مستوى واحداً، ونعني به المستوى المعجمي، وبنسبة ضئيلة جداً، المستوى الصوتي، ومن ثمّ، فبدلاً من ضياع الوقت بغية الحديث عن "التحديث"، فإنه يليق بنا أن نتحدث عن

طرائق ووسائل "التحديث"، وهذا أقصى ما تسمح به لغة ذات إرث ثقافي وتاريخي وأدبي يعود إلى فترات خلفية قصوى سحيقة جداً.

القرآن والعولمة اللغوية:

ولعل ما سيقوّي مستقبل اللغة العربية ويسعفها عسراً بعد عصر، أن العامل الديني لا يعدّ مثبّطاً لمسيرتها العولمية القادمة، لأنه يصبّ في صالحها، بسبب أنه عالم ثابت وقابل للاستمرار، ثابت لأنه مرتبط بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقابل للاستمرار، لأن ألفاظه متساوقة في معانيها، وواحدة في أوامرها ونواهيها، بصرف النظر عن العصور والأجيال الماضية والآنية والمستقبلية، لأن ألفاظ القرآن، حتى وإن كانت فعلاً عربية، فإن توظيفها لا يشبه أي توظيف بمستوى معجمي متماثل صوتياً ودلالياً. إن المدد اللساني التي تتماز به العربية بفضل اللسان العربي القرآني، لا تظفر به أية لغة بشرية، وهذا المدد لا يزيد من يوم إلى آخر إلا اتساعاً وامتداداً واعتزازاً، وهي اللغة الوحيدة التي تصل المؤمن بربه دون واسطة من ترجمة أو تفسير.

ولا أحسب أن العصبية القومية الضيقة ستقوى شوكتها ويطول عمرها، وسيقابل ذلك تقارباً إنسانياً حتمي في ظل راية واحدة، هي راية القرآن التي سنظلُّ بأفئائها قبائل وشعوبا أشمل وأوسع مما هي عليه حالياً.

مستقبل الحرف العربي أمام التجمعات الإسلامية:

ومما نتبصره أن المجتمعات الإسلامية التي تراجعت عن كتابة لغاتها بالحرف العربي، ستتبدد يوماً لا محالة الحرف اللاتيني، وتعود من جديد إلى

تعميم الحرف العربي، لأنه ما من جدوى في الاستمرار بتبني حروف تعبر بها عن أصوات دينها، وأخرى ترمز بها إلى أصوات دنياها، ستضجر لا محالة يوماً من هذه الثنائية التي لا تخلو من غرابة، فضلاً عن كونها تبدد طاقات الكتب وحتى الناطقين شفهيًا، وتشوش فكرهم وحياتهم.

قد يرى غير واحد مما ألمحنا إليه مجرد هراء وخيال، طالما أن تجمعات إسلامية قطعت أشواطاً علمية وثقافية وإبداعية بعيدة يتعذر معها الانتقال من رسم إلى رسم، وهذا واقع لا يدحضه أحد، غير أن الانتقال من حرف إلى حرف أمر سلس، ما دام الأمر لا يتعلق بترجمة، بل فقط بكتابة، ثم لماذا ارتدت بعض التجمعات عما كانت ألفته من ألفبائية، وتبنت ألفبائية جديدة؟ إن الأمر يتعلق بتبني لغة جديدة.

وما من شك في أن ضغوطاً سيعظم مفعولها ليعم الحرف العربي لغات عالمية بذاتها، بفعل انتشار اللغة العربية عبر كوكبنا، لأن المؤمنين الناطقين بهذه اللغات لن يشعروا براحة البال، وهم يتطلعون إلى الكمال، بلغة أو لغات لا تمت بصورتها الصوتية وطبيعة تراكيبها وسرّ نظمها إلى اللغة القرآنية التي لا يشوبها نقص ولا زيادة.

هل من صِمام آمن لمستقبل العربية؟

ومع ذلك، فإن ما ألمعنا إليه ينبغي ألا يجعلنا نغترّ اغتراراً قليلاً أو كثيراً بأن مستقبل اللغة العربية في صراعها مع اللغات العالمية الأكثر نطقاً أو مساحة مضمون بصِمام آمن، بل ليتحقق ذلك تحتاج من ذويها تيسير علومها، وتعميم استعمالها بينهم داخلياً وخارجياً، وحمايتها من الركاسة والتهمين والإهمال، وأمام العرب فسحة لسانية طيّعة تؤازرهم على التخطيط المستقبلي

العقلاني للغتهم، وهي دين ومصير في عنقهم لاسعا فها حداثيا حتى تكون هذه اللغة على أتم الاستعداد لتحدي العولمة اللغوية المستقبلية.

وأعتقد أن ضالة لغات وصمود لغات في العالم، سيختلفان عنهما فيما سلف، يوم كانت اللغة تفرض وجودها على حساب مصادرة حقوق لغات وطنية أخرى في الوجود، حدث ذلك منذ ظهور الاكتشافات لجزر وأرضين بل لقارة بكاملها، ومنذ بروز الهيمنة الاستعمارية في أدنى وأقصى محطة في عالمنا القديم والجديد، ذلك عهد ولّى ولن يُقدّر له أن يعود بشروره التي لا تبرح شعوب كثيرة تنن تحت وطأته، وتجنّي ما تجني من تركته السيئة، ومنها الاستلاب اللغوي الوطني الأصيل الذي نسيته أو تناسته تجمّعات بشرية على مستوى القارات التقليدية، وكرّست في الوقت نفسه تنبّي لغة الغالبين، ولربما أضحت فئات أرستقراطية تعدّ فقيهاً لغوياً بالأصالة اللغوية أمياً أو في أحسن الحالات هو فرد أحادي ناقص، ومن ثمّ لا يُجازى لأن يكون مثلاً، في مجمع لغوي خاص بلغته، لجهله لغة أو لغات أجنبية حديثة، وهذه ظاهرة نفسية مرضية لا لسانية، يجب أن تعالج من داخلنا لا من خارجنا، ولعل أخطر ما فيها عدم الثقة في نفوسنا، وإعطاء أسوأ مثال لجيلنا، فضلاً عمّا يصحبها من تجريد لقيمنا، وإهدار لهويتنا، وتشريد لوصل أجيالنا.

ومما يلوح في الأفق البعيد قياساً على ما يُمارس سراً وعلانية من ممارسات غير أخلاقية وغير متكافئة بين دول "متقدمة" ودول "متخلفة"، ودول غنية وأخرى بائسة، فإن هيمنة لغة هنا سيقابلها، وفي آنٍ، انزواء وتوقُّع لغة هناك، وسيكون من الصعب على لغة لا تُسنَّعَل حالياً ميدانياً، ولا يُنتجُ بها المعرفة، ولا يُبدعُ فيها من الداخل مع تطعيمها معجماً من الخارج، أن يكون

لها نَفَسٌ قويٌّ وطويل للصمود أمام السيل الجارف للعولمة اللغوية التي لن تَشْبَع ولن تَرَوَى.

ومن ثمَّ، فإنه يُوصى بتجنيب اللغاتِ الناهضة ذات الاستعمال المحدود، والانتشار الضيق، الصراعَ المستقبليَّ ما أمكن إلى ذلك سبيلاً، وبدلاً من خَوْضِ لغةٍ معركةً خاسرةً من البداية، فإنه من الأولى للقائمين عليها أو المنتمين إليها أن يُحصّنوها من الداخل حتى لا تُعْزَى عَزْواً لا إرادياً من الخارج، على ألاّ تتم تلك الحصانة بالعاطفة الرومانسية، ولا بالشعارات الفارغة، ولا بالإعجاب والتغنيّ بأمجادها، بل بإنتاج المعرفة وإثرائها وتقويم ما قد يَعْوَجُ منها أسوة بمن سبقونا، وإفساح الفرصة لها لتعميمها على جميع الأصعدة تعليمياً وعملياً ومعملياً.

وقد يعتب علينا عاتب، ومن حقّه ذلك تماماً، متسائلاً في غير قليل من العجب: من أين لك هذا البصيص الذي بَصَّ لك، أو من أين لك هذا الاستبصار الذي يُبَصِّرُك بمستقبل واعد للغة العربية، وقد كنت حتى الحين غير متقائل بهذا المستقبل العولمي لهذه اللغة؟ أجل، هذا ما بدا ويبدو في ثنايا حديثنا هنا ظاهرياً.

في واقع الأمر لا يوجد أيُّ تناقض صريح بين صيحة هنا، وصُراخٍ هناك مما سبق أو لحق من إيماءات عارضة فيما لاح لنا أن نبديه بشأن المستقبل العولمي للغتنا العربية، لأننا في أعماقنا وقرارة أنفسنا نَمَيِّزُ بجلاء بين العربية بوصفها بنية مستقلة لا صلة لها بمن يقبل عليها أو يدبر عنها من جهة، وبين من تعاطوها ويتعاطونها ماضياً وحاضراً ومستقبلاً من جهة أخرى، وهذا هو الخيط الأبيض الذي يفصل بين قوم لغة، ولغة قوم، فنحن معاشر العرب، تبعاً

لما يشهد به واقع الحال، أقرب إلى أناس يستعملون لغة أو لغات منا إلى آدميين يصنعون لغة، وشتان بين الأمرين.

غياب الوعي اللغوي الذاتي في الآخر:

ولعل من أخزى ما يلحق المرء من مُخزّيات أن يسعى جاهدا في استعمال لغة بديلا للغة، وبدون حياء، وهذا الصنف من البشر صنف مستهلك، حتى ولو أنتج المعرفة، وصنع الذرة بلغة لا يمتُّ بصلة أيّ متّ تاريخي ولا قومي ولا ديني إليها، بل تراه ينافح عنها منافحة أشرس من كونها لغة تواصل ناقلّة، لأن المرء غاب عنه وعيه الذاتي لظرف خارجي أوجده، إلا واندمج في وعي الآخر، ومن ثم لكي تردّه إلى أحد مقوماته الجوهرية، عليك أن تفكّر وتتدبّر كيف تسحبه من أعماق وعي الآخر الذي امتزج به قسرياً أو إرادياً لم يعد يشعر به أقلّ شعور.

بيد أن ما أومأنا إليه آنفا لا يشكّل ضرباً من المستحيل أمام الزحف المستقبلي عولمياً للغة العربية، وإن الصنف الذي أشرنا إليه هو من سيلهث وراء لغة دينه وإرثه وهويّته، بل هذا الصنف الأقرب إلى وعي ومجد الآخر منه إلى وعيه الأصيل ومجده اللاتلّ، سيندثر بعد عقود قليلة قادمة، وسيبشّر زوالهم بمستقبل زاهر للغة العربية التي ستكون أفضل حالا بدونهم، لأن هذا الصنف المنصهر في وعي الآخر عالة لا تطاق حالياً على حساب اللغة العربية التي سنؤذى أكثر مما ستجدي نفعا لو يُقيّض لهم الاستمرار والخلود معها، وإلا فماذا ستجني العربية من قوم يعادونها، وهم منتمون إليه صليبةً، وينتجون المعرفة، ويبعدون، ويتمرسون بلغة أخرى؟.

وإذاً، فتقننا في اللغة العربية أعظم من تقننا بذويها، حتى وإن كان التعميم هنا إجحافاً كبيراً في حق رجالات لم يألوا جهداً ولا ادّخروا وسعاً في خدمتها والنهوض بها نظرياً وعملياً، منذ ظهور ذلك الرعيل العربي الأول في البصرة التي آن الأوان لها لأن تُرسم عاصمة علمية للعربية، إلى فترات لاحقة متتابعة رغم العوائق والمثبّطات التي عرفتّها هذه اللغة في مضاربها، كما أننا لا نتجاهل النهوض الشامل والاستثنائي الذي شهدته العربية في بلد عربي مثل سوريا التي عملت على تعميم استعمال اللغة العربية تعميماً شاملاً في جميع دواليب الدولة السورية الشقيقة.

مكتبة البحث:

- 1- ينظر: "أتعرّف على العولمة"، ص: 3، د. صالح الرقيب، دار البحّار، عمان، الأردن.
- 2- مجلة "الطريق"، ص: 7، العدد الرابع، سنة 2000.
- 3- نفسه، ص: 24.
- 4- نفسه، ص: 24.
- 5- ينظر: المصدر نفسه، ص: 25 - 27.
- 6- التواصل والتثاقف، ص: 293، مطبعة النجاح الجديدة، ط: 2010/1، الدار البيضاء (المغرب).
- 7- عالم الفكر، ص: 42، مجلد: 22، العدد: 1999/2، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت.
- 8- ينظر: مجلة "بونة" العدد الثالث، ص: 34، يونيو، 2005.
- 9- عالم الفكر، المرجع السابق، ص: 45.
- 10- نفسه، ص: 45.
- 11- سورة الحجرات، آية: 13.
- 12- سورة الحجرات، آية: 14.

- ¹³ - من قضايا الفكر واللغة، ص: 289 - 290، مصطفى بن حمزة، ط: 2010/1، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط.
- ¹⁴ - العرب تاريخ ومستقبل، ص: 245، جاك بيرك، ترجمة: خيرى حماد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ط: 1971.
- ¹⁵ - من قضايا الفكر واللغة، ص: 292.
- ¹⁶ - نفسه، ص: 293.
- ¹⁷ - العربية، دراسة في اللغة واللهجات والأساليب، ص: 1، يوهان فوك، ترجمة: د. عبد الحليم النجار، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط: 1951.
- ¹⁸ - نفسه، ص: 50.
- ¹⁹ - ينظر: اللغات السامية: تخطيط عام، ص: 85 - 86، تيودور نولدكه، ترجمة: د. رمضان عبد التواب، المطبعة الكمالية، القاهرة.
- ²⁰ - بهذا الصدد يراجع دراسات في العربية وتاريخها، ص: 14.
- ²¹ - سورة الروم، آية: 22.
- ²² - ينظر: أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، ص: 16 - 20. محمود عباس العقاد، دار المعارف، مصر، ط: 1970/2.
- ²³ - الأصوات والإشارات، ص: 66، كندراتوف، ترجمة: شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972.
- ²⁴ - عبد الليل مرتاض، أعمال الموسم الثقافي، المجلس الأعلى للغة العربية، (الجزائر) 2000، ص: 37.
- ²⁵ - اللسانيات وأسسها المعرفية، ص: 129، د. عبد السلام المسدي، الدار التونسية للنشر، أوت 1986.
- ²⁶ - نفسه، ص: 130.
- ²⁷ - سورة يس، آية: 40.
- ²⁸ - محاضرات في الألسنية العامة، ص: 20، ف. دي سوسور، ترجمة: يوسف غازي، مجيد النصر، دار نعمان، ط: 1984، بيروت.
- ²⁹ - نفسه، ص 93 - 94.

- ³⁰ - الألسنية (علم اللغة الحديث)، ص: 40 - 41، د. ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط: 1983/2، بيروت.
- ³¹ - ينظر: مدخل إلى اللسانيات، ص: 37، رونالد إيلوار، ترجمة: د. بدر الدين القاسم، ط: 1980، مطبعة جامعة دمشق.
- ³² - الصاحبى في فقه اللغة، ص: 33، أحمد بن فارس، تحقيق: د. مصطفى الشويمي، ط: 1963، مؤسسة بدران للطباعة، بيروت.
- ³³ - وظيفة الألسن وديناميتها، ص: 346 - 347 أندري مارتني، ترجمة: نادر مراج، ط: 2009/1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت.
- ³⁴ - نفسه، ص: 347.
- ³⁵ - العولمة والهوية الثقافية، ص: 235، إشراف: أ.د. فضيل ديبو، مخبر علم الاتصال للبحث والترجمة، 2010، جامعة قسنطينة.
- ³⁶ - ينظر: المرجع السابق، ص: 237.